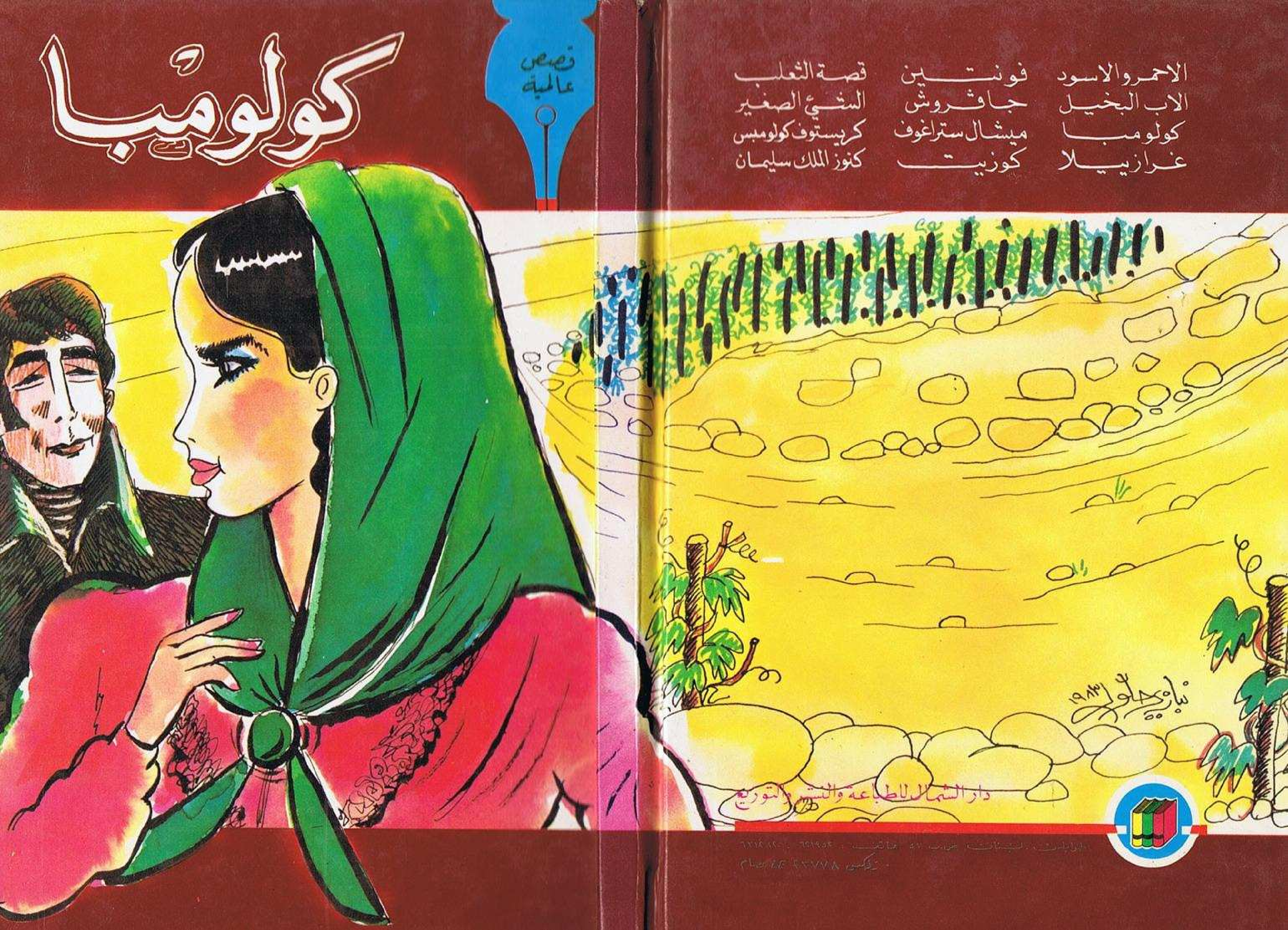


كولومبا
قصص عالمية
الاحمر والاسود
فونتين
قصة الثعلب
الاب البخيل
جافروش
الشيء الصغير
كولومبا
ميشال ستراغوف
كريستوف كولومبس
غرازييلا
كوزيت
كنوز الملك سليمان
دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع

كولومبا

تأليف الكاتب الفرنسي الكبير

بروسبر ميريميه

أشرف على التعريب

ناصر عكاري

مراجعة

سيف الدين الخطيب

الطبعة الأولى

دار الشمال للطباعة والنشر والتوزيع
طرابلس لبنان : تلفون ٦٣١٢٨٢

كولومبا

في شهرِ تشرين الأول من عام ١٨١٩ ، كان السّير توماس نيفيل ، العقيدُ في الجيشِ الانكليزي وابنتهُ الانسة ليديا ، المسافرينْ بحراً من مرسيليا الى كورسيكا ، يعتقدانِ أنهّما وحيدان ، لكنَّ شاباً صعدَ ايضاً في اللّحظةِ الأخيرة الى المركب. إنّه أورس أنطون ديللاريبيا ، الملازمُ السّابقُ في جيشِ نابوليون والمتحدّرُ من إحدى أعرقِ الأُسرِ في كورسيكا. وبفضلِ لُطفهِ ومرحِهِ وثقافتِه فقد أَعجب أورس أنطون العقيد فوراً.

كانتِ اللّيلةُ الأولى جميلةً ، فالقمرُ يرسلُ اشعّتَهُ على البحرِ والمركبُ يسيرُ مدفوعاً بريحٍ خفيفة. أحبّتِ الآنسة ليديا شاعرية هذه اللّيلةِ فصعدتْ الى ظهرِ السّفينةِ مع وصيفتِها. لم يكن هناك احدٌ سوى البحّارِ المناوبِ الذي كان يُغنّي أغنيةً كورسيكيّةً في مُؤخّرةِ المركب. لم تفهمِ الانسةُ ليديا كلَّ الكلمات لكنها أدركتْ أنَّ الأُغنيةَ تتحدّثُ عن جريمةِ قتْل :

«تلزمُني اليَدالتي قتلت،

ـ والعينَ التي صوّبت،

ـ والقلبَ الذي فكر. . .

ثم توقّف البحّارُ مُتضايقاً.

سألتْهُ الآنسةُ نيفيل: «لِمَ لا تكملُ يا صديقي؟ . .

دهِشَ البحّارُ على اورسو الذي صعد هو ايضا الى ظهر السفينةِ لِيُشاهدَ ضوءَ القمر، عندئذٍ قالتِ الآنسةُ ليديا: «اكملْ أُغنيتَك، إنها تلذُّ لي.»

لم يُجبِ البحّارُ وتقدّمَ أُورسو نحوَها قائلاً: «أرى أنّكِ تتأمّلينَ بحرَنا المتوسطَ بسرور، فالمرءُ لا يُشاهدُ هذا القمرَ في أمكنةٍ أُخرى، أليسَ كذلك؟

ـ لم أكُنْ أنظرُ إليه، فقد كنتُ مُنشغلةً بدراسةِ اللّغةِ الكورسيكيّة، وكان هذا البحّارُ يُغنّي أُغنيةً مُرعبةً فيها دمٌ كثيرٌ وتوقّف عند أجملِ لحظة.

تطلّع البحّارُ ليرى ما إذا كان أورسو لا ينظرُ إليه وشدَّ معطفَ الآنسةِ ليديا.

كان واضحاً انّ أُغنيته لا يمكنُ أنْ تُغنّى امام المُلازمِ اورسو الذي قال:

ـ ما الذي تُغنّيه يا باولو فرانسي؟ إنّ الانسة تفهمُكَ وتودُّ سماعَ الجزءِ الأخير.

ـ لقد نسيتُه يا أورس انطون.

لم تقلِ الآنسة ليديا شيئاً وقررتْ أن تنتظرَ لمعرفةِ نهايةِ الأُغنيةِ، لكنّ وصيفتها الايطالية التي تفهمُ اللّغة الكورسيكيّة كانت تتوقُ هي أيضاً لمعرفتها فسألتْ أورسو قبلَ أن تتمكن الآنسةُ ليديا من تحذيرها:

ـ ما معنى إعطاء الريمباكو يا سيدي؟

ـ معناهُ السّخريةِ من رجلٍ لم يثأرْ لنفسه.

ـ كيف؟ يثأر؟

ـ اجلْ، إنّ الرجلَ لا يثار لنفسِه حينما لا يأخذ حقّه بنفسِه ويقتلُ عدوَّهُ وهو أمرٌ مخيفٌ بالنسبةِ للكورسيكي، فمنِ الذي حدّثَكَ عن هذا الريمباكو؟

بادرتِ الانسةُ ليديا للاجابة: لقد استعمل صاحبُ المركبِ هذه العبارةَ البارحةَ في مرسيليا.

ـ وعمّنْ كان يتحدّث؟

ـ كان يسردُ علينا قصةً قديمة. . أجل، اعتقدُ. . . إنّني نسيتُها. ليلةً سعيدةً يا سيدي.

نزلت الآنسةُ ليديا الى غرفتها فذهب أورسو من جهته.

وبعد انصرافِهِ حضرتِ الوصيفةُ مجدّداً الى ظهرِ السفينةِ وسألتِ البحّار: «لِمَ قطعتَ أُغنيَتك؟»

ـ لأنّ اورسو قد وصل، فهذه الأغنيةُ أُلِّفتْ عندَ وفاةِ ابيه العقيد ديلا ريبيا الذي قُتلَ منذُ سنتيْن. وأنا واثقٌ من انّ اورسو عائدٌ الى كورسيكا ليثأر لنفسِه. وعمّا قريب سيُرى «لحم طازج» في قريةِ بياتر. أتراه يعتقدُ أورسو أنّ شخصين أو ثلاثة قد قتلوا والده وسيقتلهم بدورِه.

ردّدتِ الوصيفةُ كلَّ ما سمعتْهُ للآنسةِ ليديا فزادَ اهتمامُها بأورسو. وفي اليوم التّالي طرحتْ عليه اسئلةً طويلةً عن بلاده فأجاد الحديثَ عنها. وعندئذٍ فقط لاحظنا عينيْ الملازم الشاب الكبيرتيْن وأسنانه البيضاءَ وجسمه النّحيف وتربيته الحسنة. . قال:

«لقد غادرتُ كورسيكا وأنا صغيرٌ، فظلّتْ تعيشُ في فكري وخيالي. إنّني أُحبُّ جبالَها وغاباتِها وعاداتِ سكانها. غالباً ما تُسمعُ كلمةُ الثأرِ من فم الكورسيكي، لكنّي لا احبُّ مَنْ يثأرون. وهنا ينبغي أنْ اقول لكِ أنّ جزيرتَنا كانتْ دائماً في حربٍ مع الجنوبيّين وأننا كُنّا دوماً مُفتقرين الى العدالة. وهكذا تعوّد الكورسيكيون الذين يعيشونَ وسلاحُهم في ايديهم على أنْ يأخذوا حقَّهم بأنفسهم.

لكنّنا الان نعيشُ اخيراً بسلامٍ بعد أنْ اصبحنا فرنسيّين وأصبح لنا قُضاة. ربما كان من الممكن غفران افكار الثّأرِ عند الفلاحين الذين لم يفهموا بعدَ الأفكار الجديدة جداً عليهم. إنّ «الفانديتا» ومعناها الثّأر هي حقاً قتالُ الفقراء. وقبل انْ يدخلَ المرءُ حرباً مع عدوٍ يُحَذِّرهُ: «إحترس فأنا مُحترس». صحيحٌ انّ القتلَ عندنا يفوقُ القتلَ في كلِّ مكانٍ في العالم، لكن لا أحد يقتل بهدفِ السّرقة. لدينا قَتَلَةٌ كثيرون، دون أنْ يكونَ عندنا سارقٌ واحد».

ها هِيَ السّفينةُ الآن على مَرمى النّظرِ من كورسيكا، وقد انبرى أحدُ البحارة لتسميةِ نُقاطِ الساحل الهامة. وأحياناً كان يُشاهَدُ رجلٌ يلبسُ جوخاً أسمر، وقد تدلّتْ بندقيّةٌ طويلةٌ من كتفِه وامتطى جواداً صغيراً سريعَ العدْوِ في دُروبِ الجبلِ الضيّقة.

قالت الآنسةُ ليديا: «ربما كان هذا هارباً من وجهِ العدالة».

أجابَ أورسو: «إنّه بدون شك فلاّحٌ مُسالمٌ يقطنُ القريةَ المجاورةَ ويسافرُ لأعماله. وإذا كان يحملُ بندقيّةً، فلأنّ تلك عادةٌ في كورسيكا.»

بعد ثلاثة ايام، وجدوا أنفسهم امامَ الجزرِ الدموية ومدينة

اجاكسيو الجميلة الواقعة على شاطىء البحر والمُحاطةِ بجبالٍ عالية.

عندما دخلتِ السّفينةُ المرفأ، كانتْ غابةٌ مُلتهبةٌ تُغطّي «بوشادي جيراتو». لكنّ كلَّ شيء كان حزيناً حولَ اجاكسيو والحركةُ معدومةٌ في الشّوارعِ اذ لم يكنِ المرءُ يُصادفُ سوى عددٍ صغيرٍ من الرجّالِ دونَ عملٍ لا يتبدلون، والقليل من النّساء، وهنّ فلاحاتٌ يأتينَ لبيعِ الخضارِ والفواكهِ وكلّ ما تنتجهُ البلد. لم يكنْ يُسمعُ كلامٌ بصوتٍ مُرتفعٍ أو ضَحِكٌ أو غناءٌ كما هِيَ الحالُ في مدن ايطاليا. وفي بعض الأحيانِ كان اثنا عشرَ فلاّحاً مسلّحينَ يلعبونَ الورق او يتفرّجونَ على اللّعبِ في ظلّ إحدى شجراتِ الشّارع، دون أنْ يصرخوا أو يتناقشوا.

بعد وصولها إلى أجاكسيو ذهبتِ الآنسةُ نيفيل لرؤيةِ نابليون، لكنّها سرُعانَ ما تعبتْ من هذه المدينةِ الحزينةِ وبدأتْ تعتقدُ أنها قد أخطأتْ بالمجيء، عندئذٍ أخذتْ أقلامَها وألوانها وشرعتْ ترسم. في هذه الأثناء ذهبَ العقيدُ وأورسو إلى الصيدِ وعادا حواليْ السّاعةِ السّادسةِ مُثقلين بالطّرائد.

حينئذٍ تناولَ الجميعُ العشاءَ فغنّت الآنسةُ ليديا ونام العقيدُ وبقيَ الشابُّ والصبيّةُ يتناقشان حتى ساعةٍ مُتأخرة.

لم يكن اورسو مُستعجلاً لرؤيةِ قريتهِ من جديد، وبدا

عليه أنّه مسرورٌ جداً في اجاكسيو. كانتِ الصبيّةُ تريد أنْ تشفيه من رغبةِ الثّأرِ التي تعتقدُ أنها قد استقرّتْ في قلبِهِ وتُنسيه الأفكارَ السّوداءَ التي تعتقدُ أنها أعادتْهُ الى جزيرته.

اضطرّ العقيدُ نيفيل لمقابلةِ المحافظِ بسبب جوازِ سفر، فزاره هذا الأخير بدورهِ للتعرّفِ على ابنتِه وكان أورسو موجوداً هو ايضاً. قال العقيد:«إنّني لا أُقدّمُ لكَ السيد ديللاريبيا لأنكَ تعرفُه بدون شك»

سأل المحافظُ وقد بدا عليه بعضُ الضيّق:

ـ هل السيّد هو ابن العقيدِ ديللاريبيا؟

اجاب أورسو: أجل، يا سيدي!

ـ لقد عرفتُ السيّد والدَك.

ثم بدأ يتحدّثُ عن باريس ودفعه فضولُه لسؤالِ الآنسةِ نيفيل:

ـ هل تعرّفتِ على السيد ديللاريبيا على البر؟

ـ لا، فقد عرفتهُ على المركب الذي احضرنا الى كورسيكا.

قال بصوت منخفض:

ـ إنّه شابٌ كما ينبغي. هل قال لكِ لِمَ يعودُ إلى كورسيكا؟

ـ لا، فقد عرفتهُ على المركب الذي احضرنا الى كورسيكا.

قال بصوت مُنخفض:

— لم اسألْـهُ عن ذلك، فباستطاعتِـكَ أنْ تطـرحَ عليه اسئلة.

صمت المحافظُ لكنّه بعدَ لحظةٍ سمع اورسو يتحدّثُ الى العقيد بالانكليزيّة فقال له:

— يبدو لي يا سيدي أنّكَ قد سافرتَ كثيراً، فلا ريبَ أنّك قد نسيتَ كورسيكا وعاداتها.

— هذا صحيحٌ، فلقد كنتُ صغيراً جداً عندما غادرتُها.

ذات مساء تجرأت الآنسةُ ليديا فقالت لأورسو: «حسناً يا سيدي، يجبُ أنْ اقولَ لكَ إنّني قد عرفتُ جزءاً من قضاياكَ دون أنْ أُحاول ذلك، ومنها ما ينقبضُ له قلبي. إنّني اعرفُ المصائبَ التي حلّتْ بأسرتِك، وقد حدّثني النّاسُ كثيراً عن انتقاماتِ مُواطنيكَ فخفتُ.»

— كيف تستطيعينَ التّفكير.

قالها أورسو وشحبَ لونُه فبدا كالميّت.

اجابتْ وهي تُقاطعه:

— كلا يا سيد ديللاريبيا، إنّني اعرفُ أنّكَ «جنتلمان».

— هل تعتقدينَ انّه يمكنُ انْ أُصبح قاتلاً في يومٍ ما؟

— كلاّ، لكنّي تحدّثتُ اليكَ لأنني فهمتُ أنّ عليَّ أنْ أُساعدكَ لحظة عودتك الى بلادِك. أعلمُ انّه ستكون لديكَ الشجّاعة

لعدمِ اتباعِ هذه العاداتِ القديمة فلنكفّ عن الكلام عن هذه الأشياءِ البشعةِ التي تُسبّبُ ليَ الصّداع ثم إن الوقتَ قد تأخر.. فهل تغفر لي؟... مساءً سعيداً.

— هناك لحظاتٌ يا آنستي تستيقظُ فيها عاداتُ البلادِ القديمة في نفسي. أحياناً، عندما أُفكّر بوالدي المسكين... تستقرّ في داخلي أفكارٌ مُرعبة.. لقد طردتِها.... فشكراً.... شكراً..

في اليوم التالي كانت الآنسةُ نيفيل أمامَ شبّاكِ غُرفتِها فلاحظت صبيّةً ترتدي ملابسَ سوداء تدخلُ المدينةَ على صهوةِ جوادٍ صغيرٍ لكنّه قوي، يتبعُها فلاّحٌ يبدو بسلاحِهِ كهاربٍ من وجهِ العدالة... او كمسافرٍ كورسيكي وديع. إنها رائعةُ الجمالِ وتظهرُ في العشرين من عمرها، حزينةُ النّظرات، واثقةُ المظهر. شعرُها الأسودُ مشدودٌ الى الخلف ورأسُها مُغطّى بمنديلٍ أسودٍ كبير. امّا ثوبُها ففي غاية البساطة.

توقّفتْ لِتطرحَ اسئلةً على بعضهم، ثم جرّتْ جوادَها بسرعةٍ وجلستْ على مقعدٍ حجريٍّ بجانبِ الباب بينما اقتاد تابعُها حصانَها.

بعدَ قليلٍ ظهر العقيدُ وأورسو العائدان من الصيد. عندئذٍ قال صاحبُ النزّل بضع كلماتٍ للصبيّة المرتدية ثياب

الحدادِ ودلّها بإصبعه على الشابّ ديللاريبيا ، احمرّ وجهها ونهضتْ فتقدّمتْ بضعَ خطواتٍ ثم توقفت. كان أورسو قريباً منها يتطلّعُ إليها بانتباه. قالت: أأَنتْ أورسو أنطونيو ديللاريبيا؟ أنا كولومبا.

— كولومبا!

اخذها بين ذراعيْه وقبّلها طويلاً ممّا ادهش العقيد وابنته ، ففي إنكلترا لا يتعانقُ النّاسُ في الشارع.

قالتْ كولومبا: «إغفرلي يا أخي إذا كنتُ قد اتيتَ دون امرك لكنني علمتُ بقدومك من اصدقائنا وكنتُ في غايةِ السّعادةِ لرؤيتك!..»

قبّلها اورسو ايضاً ثم التفتَ نحو العقيدِ قائلاً: هذه أُختي، ولم اكن لأتعرّفَ عليها لو لم تُسمِّ نفسَها. يا كولومبا، إنّني أُقدّمُ اليكِ العقيدَ سير توماس نيفيل. اعذرني ايّها العقيدُ لكنّني لنْ أستطيعَ أنْ أتعشّى معكم اليوم... إن أُختي......

— لا يا صديقي العزيز، فسيكونُ من دواعي سرورِ ابنتي أن تتعشّى الانسة معنا.

قُدّمتِ الآنسة ديللاريبيا للآنسة نيفيل التي عرضتْ عليها أنْ تأمرَ بوضع سريرٍ ثانٍ في غرفتها لأنّ الفندقَ مُمتلىء. شكرتها

كولومبا وتبعتْ وصيفة الآنسة نيفيل كي تغتسل وتصفّفَ شعرها وتنزع الغبار عن ثيابها.

وعندَ دخولِها توقّفتْ أمامَ بنادقِ العقيدِ التي كان الصيّادان قد وضعاهامنذ قليلٍ في إحدى الزّوايا، وقالت: يا للأسلحة الجميلة! هل هي لك يا أخي؟

— كلاّ، إنها بنادقُ العقيد.

— بودّي لو كانت لكَ واحدةٌ مثلُها.

قال العقيد:

— احدى هذه البنادق الثلاثةِ هي بالتأكيدِ لديللاريبيا. إنّه يُجيدُ استعمالَها فمُقابل اربع عشرَةَ طلْقةً أطلقها اليوم حصل على أربع عشرة طريدة. إختر يا عزيزي.

إعتذرَ أورسو عن أُختِه وأجاب أنّه لا يرغبُ بها.

— حسناً، ستختارُ الآنسةُ أُختك بالنيابةِ عنك.

لم تدعْهُ كولومبا يكرّرُ قوله اذْ بدتْ سعيدةً كطفلٍ أمامَ لُعبتِه وهي تتناول اقلَّ البنادقِ جمالاً ، لكنها جيدةٌ ذاتُ عيارٍ كبير. قالت: «هذه البندقيةُ بعيدةُ المرمى.»

عاد أخوها فحاول الاعتذارَ منها فلم يعرف كيْف يعبّرُعن شكرِه . جاء العشاءُ فبدّل الأفكار. كانتْ عينا كولومبا تلتقي أحياناً بعيني أخيها وكأنهما تحاولانِ أنْ تطرحا عليه سؤالاً ، لكنه

كانَ يتضايقُ فيحوّلُ بصره إلى جهةٍ أُخرى، كمنْ يتراجع أمامَ ذلك السؤالِ الذي يدركهُ جيداً.

بعدَ العشاءِ سأل العقيدُ اورسو: «هل تريدُ انْ نتركك لوحدِكَ مع الآنسة كولومبا؟»

ـ كلاّ يا سير توماس، فسيكونُ لنا الوقتُ الكافي للحديثِ في بياترا نيرا، عندما نستقرُّ فيها.

حاولت الآنسةُ نيفيل ان تدفع كولومبا الحسناءَ الى الحديثِ لكنّها لم تُفلح في ذلك فطلبتْ عندئذٍ من اورسو انْ يقرأَ لها نشيداً من جحيم دانتي، وهي شِعرُها المفضّل، وبينما كان يقرأُ اقتربت كولومبا من الطاولةِ ورفعْت رأسها الذي كانتْ قد أخفضتْهُ حتى ذلك الحين فاحمرّ وجهُها ثم شَحُبَ. وعندما انتهى من القراءة قالت: كم هذا جميل! مَنِ الذي كتبَ ذلك يا أخي؟

تعجّب اورسو قليلاً، واجابت الآنسة ليديا وهي تبتسم: إنه شاعرٌ مات منذُ خمس مئةِ سنة. فقالَ أورسو: «سوف اجعلكِ تقرئينَ دانتي عندما نصلُ بياترانيرا».

عادَت كولومبا فقالت: «يا إلهي، كم هذا جميلٌ!» ثم ردّدتْ جزءاً من القصيدة دون أن يسمعها أحدٌ في البداية ثم

رنّتْ كلماتُها وتابعتْ بقوةٍ اشدّ، وبحياةٍ وحركةٍ اكثر من اخيها.

قالتِ الآنسة ليديا وقد ازداد عجبُها: «يبدو انك تُحبينَ الشِّعرَ كثيراً. كم انا مسرورةٌ لعلمي أنّكِ ستُسّرين بقراءةِ دانتي ككتابٍ جديد! قال اورسو: «انت ترينَ يا آنسة نيفيل تأثير شعر دانتي على قلبِ فلاّحة بسيطة. لكنّي مخطىءٌ اذ أذكر أنّ كولومبا تحترفُ هذه المهنة. اذا كانتْ اختي لا تحبُّ الكلامَ فهي تجيدُ الغناء وعندما كانت طفلةً، كانت تمضي وقتها بمحاولةِ نَظْم الشِعر، وكان والدي يكتبُ إليَّ قائلاً: إنهّا أعظمُ مغنيةٍ في بياترانيرا والقُرى المُجاورة.»

رمت كولومبا أخاها بنظرةٍ طويلةٍ تعيسة، أمّا الآنسةُ نيفيل التي كانت قد سمعتْ المغنّياتِ الكورسيكيّات، فقد رغبتْ بسماعِ إحداهنّ وطلبتْ من كولومبا أنْ تُعطيهَا مثالاً على فنّها. إبتسمتْ لها هذه الأخيرةُ لأنهّا ستتكلّمُ أخيراً. تأمّلتِ الطّاولةَ طوالَ دقيقةٍ ثم نظرت الى السّقف. وعندئذٍ وضعتْ يدَها على عينيْها وغنّت ما يلي:

في الوادي. بعيداً جداً وراءَ الجبال،
تُطلّ الشّمسُ ساعةً فقط كلّ يوم.
في الوادي بيتٌ مظلم

ينبتُ العشبُ امامَ بابِه.
أبوابُه وشبابيكُه دوماً مُغلقة.
لا يتصاعدُ ايُّ دخانٍ من سقفه.
لكنْ عندما تأتي الشّمسُ ظهراً
عندها تُفتح نافذةٌ
وتجلسُ الصبيّةُ اليتيمةُ الأبويْن
إنهاتخيطُوتغنّي، وهي تعملُ،
اغنيةً حزينةً.
لكنّ ايّةَ اغنيةٍ أُخرى لا تتجاوبُ مع أُغنيتِها.
وفي يومٍ من ايّامِ الرّبيع
حطّتْ حمامةٌ على شجرةٍ قريبة
فسمعتْ غناءَ الصبيّة
وقالتْ: ايتّها الصبيّةُ إنكِ لا تبكين وحدكِ
فقد انتزع منيّ طائرٌ مخيفٌ صديقتي.
ـ أيتّها الحمامة، أَرِيني الطّائرَ المُخيف،
وحتى لو كان بعلوِّ الغُيوم
فسأقتلُه قريباً.
لكنّي وأنا البنتُ المسكينةُ، مَنْ يُعيدُ لي اخي
أخي البعيدَ الآن في الغُربة

ـ أيتُها الصبيّة، قُولي لي اينَ اخوك
وستحملُني جناحايَ الى قُربه.

قال اورسو مُعانقاً أُخته وقدِ انقبض قلبُه: هذه حمامةٌ مُهذبة. امّا العقيدُ الطيّبُ فلم يَفهمْ كلمةً واحدةً لكنّه قال لكولومبا: «انّني جدُّ سعيدٍ يا آنسة لِسماعي نشيدك. هذه الحمامةُ هي بالتأكيدِ ذلك الطّائرُ الذي اكلناهُ اليوم.»

حلّت ساعةُ النّوم فذهبتِ الفتاتانِ الى غُرفتهما. وبينما كانتْ كولومبا تخلعُ ثيابَها لاحظتِ الآنسةُ ليديا أنها تضعُ شيئاً على الطّاولةِ تحتَ ملابسها، فدفعها فضولُها الشّديدُ الى الاقترابِ منها ورأتْ سكيّناً طويلةً ذات قبضةٍ فضيّة، حسنةِ النّقش، تشكّلُ سلاحاً قديماً غالي الثّمن. قالتْ باسمة: «هل من عادةِ الفتياتِ انْ يحملنَ هذا الشيءَ الصّغيرَ تحتَ ملابسهن؟» فأجابت كولومبا: «هذا ضروري، فهناكَ الكثيرُ من النّاسِ الأشرار»

ـ أَلديكِ الشّجاعةَ لتسديدِ ضربةٍ كهذه؟

رفعتِ الآنسةُ نيفيل ذراعَها والسكينُ في يدِها ثم خفضتْهُ وهي تضربُ كما في المسرحِ من اعلى الى اسفل. قالتْ كولومبا:

ـ اجْل، اذا كان هذا ضرورياً للدّفاعِ عن نفسي او عن

ديللاريبيا فتاةً من أُسرةٍ باريسيني ثم هجرها فقتلَهُ قريبٌ لها

... أشخاصاً آخرين يروونَ قصّةً مختلفةً

ـ أتذكرين ما كان يقصُّه علينا ذاك اليوم السيد والدُك عن أُولئك الناسِ الذين يتركون أنفسهم يموتون جوعاً اذا حِيل بينهم وبينَ العدالة؟

ـ هل تعني أنّك قد تتركُ نفسَك تموتُ جوعاً؟ أنا لا أُصدقُ ذلك. قد تبقى يوماً دون أكلٍ ثم تحملُ لكَ بعده الآنسةُ كولومبا جُبناً كورسيكياً تُنسيك لذّتُه ما وعدت به.

ـ أنتِ تسخرين منّي يا آنسة نيفيل، وأنا وحيدٌ هنا، ليس سواكِ لمنعي من أنْ أُصبح مجنوناً.

ـ لنكن جديّين، فلديكَ شجاعتُك كرجلٍ وكضابطٍ لمساعدتِك.. والصّورة التي ستحملُها عنّي.

ـ آه يا آنسة نيفيل، لو كان في مقدوري أنْ أظنّ أنني أُثيرُ اهتمامك بعضَ الشيء!

ـ أصغِ اليّ يا سيد ديللاريبيا، هل ترى هذا الخاتم الذي أحملُه في اصبعي؟ إنه قديمٌ جداً خُذه، فهو لك. وعندما تساورك فكرةٌ كورسيكيةٌ شريرة، أُنظر اليه وقُلْ لنفسِك إنّ على المرء أنْ يربحَ دائماً الشّوطَ ضدّ نفسِه.

ـ سوف افكرُ بك يا آنسة نيفيل وسأقولُ لنفسي..

ـ قُلْ لنفسِك أنّ لكَ صديقةً سيُحزنُها أنْ تعلم بشنقِك.

أخذت تضحكُ وتركتْ ذراعَ أورسو ثم ركضتْ نحو ابيها قائلة:

«أُتركْ هذه الطّيورَ الصغيرةَ يا أبتاه، وتعالَ معنا.»

* * *

كان على اورسو أنْ يرحلَ مع أُخته في الصباحِ الباكر. وبينما كان يحتسي قهوتَه مع العقيد، دخلتِ الآنسةُ ليديا مع كولومبا. كانتْ قد نهضت في الخامسةِ صباحاً، وهذا بالنسبةِ لها جهدٌ كبير. قال اورسو: «أعتذرُ لإيقاظكِ باكراً فلا شكَّ انّ أُختي قد ايقظْتكِ، وربما كنتِ غاضبةً علينا وتُريدين رؤيتي مشنوقاً».

قالتِ الآنسةِ ليديا بصوتٍ مُنخفض: «كلاّ، لكنّي رأيتُك حزيناً جداً أثناء العشاء: ربما كان ذلك لأنني سخرتُ منك، لذا لم أشأْ أنْ أتركَكَ ترحلُ وأنتَ تحملُ صورةً زائفةً عنّي. كم أنتُم مُخيفونَ أيها الكورسيكيون! إلى اللّقاء قريباً.» ثم مدّتْ له يدَها، فنظر إليها أورسو دون أنْ يُجيب. إقتربتْ منه كولومبا فاقتادتْهُ إلى جوارِ نافذةٍ وأرتْه شيئاً. قال أُورسو للآنسة نيفيل:

«إن أُختي تريدُ انْ تعطيكِ هذا يا آنسة، فنحن

الكورسيكيين ليستْ لدينا أشياءَ كثيرةٌ نعطيها . . . لقد قالتْ لي أختي إنّكِ بالأمس قد أطلتِ النّظر الى هذه السكين. وكولومبا تعتقدُ انهّا قديمةٌ ونادرةٌ لدرجة أنهّا سألتني إذا كانتْ تستطيعُ أنْ تُهديهالكِ. لكنّي أخشى أنْ تسخري منّا.

ـ هذه السكّين جميلةٌ جداً، لكنها سلاحٌ عائلي فلا أستطيعُ انتزاعها منك.

قالت كولومبا بقوّة: «هذه ليست سكينَ والدي. لقد اعطاها لأحدِ جدودِ والدتي رئيس كورسيكي كبيرٌ، وسأُسرُّ إذا أخذْتِها.»

قالتِ الآنسةُ ليديا وقد تضايقتْ: «لكنّي لا أستطيعُ أنْ اترككم ترحلون دون سلام فأجابتْ كولومبا بهدوء: «إنّ أخي معي ومعنا كذلك البندقيّة الجيّدة التي أعطانا إياها والدُكِ. هل حشوتها يا أورسو؟ عندها قَبلتِ الآنسة نيفيل السكين.

وأخيراً كان عليهما أنْ يرحلا. صافحَ اورسو يدَ الآنسة نيفيل وقبّلتها كولومبا. ومن الشبّاكِ، رأتِ الآنسةُ ليديا الأخَ والأختَ يتجهانِ على جواديهِما الى الجبل. كانتْ كولومبا تبدو سعيدةً فرفع أورسو رأسه ورأى صديقته. عند ئذٍ اراها الخاتم الذي اعطتْهُ إياه ورفعهُ الى شفتيهِ فاحمر وجه الآنسة ليديا وتركت النّافذة ثم عادت اليها فوراً لترى أصدقاءَها.

قالتِ الآنسةُ ليديا: «ما الذي اتيْتُ افعله في كورسيكا؟ وما الذي يظنُّه في هذا الشاب؟ أوه! إنني لا أُحبّه!.. كلا، كلا.. إنّه يحُبني وأنا واثقةٌ من ذلك.»

ارتمتْ على سريرِها وأرادت أنْ تنامَ لكنّ النّومَ استحال عليها.

* * *

كان اورسو يُسافرُ الان على جوادِهِ مع اخته وكانا يتناقشانِ عن الأصدقاءِ الذين تركاهُم. تحدّثتْ كولومبا بكثيرٍ من السرورِ عن الآنسة نيفيل الجميلة، وعن شعرِها الأشقرِ وتصرّفاتِها اللّطيفة. ثم سألتْ عمّا اذا كان العقيدُ ثرياً كما يبدو عليه، وإذا كانت الآنسةُ ليديا ولدَه الوحيد. وقالت: «يبدو أنّ والدَها يحُبّكَ كثيراً...»

لم يرُد اورسو فتابعتْ قولَها: «قديماً، كانتْ أُسرتُنا غنيّةً، ولا تزالُ عظيمةَ الأهميةِ في الجزيرة. لو كنتُ مكانَكَ يا أورسو لطلبتُ الآنسة نيفيل من والِدِها. (رفعَ أورسو كتفيه) ولاشتريْتُ بمالِها الغاباتِ والكرومَ المجاورة لدارنا.

ـ أنتِ مجنونةٌ يا كولومبا.

ـ انت رجلٌ يا أورسو، ولا ريبَ انّك تعرفُ اكثرَ من المرأةِ ما يجبُ انْ تفعلَه..

بعد مسيرِ ستّ ساعاتٍ، وصل المسافران إلى بوغونيانو حيثُ توقّفا للعشاءِ والنّومِ عند صديقٍ لأسرتِهما. وفي اليوم التّالي قال لهما صديقهُما وهما يستعدّانِ لاستئنافِ السّفر: «أُنظرا الى هذه الغابات حيثُ يمكنُ لِمَن ارتكبَ خطيئةً أنْ يعيشَ عشرَ سنواتٍ دون أنْ تعثُرَ عليه الشرطة.. وعندما يكونُ للمرءِ اصدقاء في بوغونيانو، لا ينقصُه شيء. لديكَ بندقيةٌ جميلةٌ يا أورسو، وبإمكانِك أنْ تقتلَ بها ما هو افضلُ من الطّريدة.

أجاب أورسو بتهذيبٍ إنّ بندقيته إنكليزيةٌ بعيدةُ المرمى.

تعانقَ الجميعُ واستأنَف المسافران رحيلَهُما. وعند وصولِهما إلى قرب بياترانيرا، رأيا من بعيدٍ ثمانيةَ رجال مسلّحين بالبنادق فقالت كولومبا بسرورٍ زائد: «إنهم جماعتُنا.»

وتابعت وسطَ دهشة أورسو:

ـ الذين يحرسونَ أراضينا. لقد طلبتُ منهم أنْ يأتوا لاقتيادِكَ حتى دارِنا، إذ لا يجبُ أنْ تدخلَ بياترانيرا لوحدِك، وعليكَ أنْ تعرفَ أنّ آل باريسيني لن يتراجعوا أمامَ أيّ شيء.

ـ لقد طلبتُ منكِ يا كولومبا ألاّ تحدّثيني عن آل باريسيني. إنّ النّاسَ يسخرونَ منّي عندما يرونَني أدخل

بياترانيرا ويتبعُني هؤلاءِ المسلّحون. إنّني غيرُ مسرورٍ من استدعائِكِ لهم.

ـ لقد نسيتَ بلادَك يا أخي، فعليّ إذن أنْ أحرسَكَ إذا لم تنتبه للخطر لقد كان عليّ أنْ أفعلَ ما فعلتُه..

في هذه اللّحظةِ رأتْ جماعةُ كولومبا اورسو فامتطتِ الجيادَ واتت لاستقبالِهما، صاح رجلٌ عجوزٌ لكنّه قويٌّ وذو لحيةٍ بيضاء: عاش أورسو! كم تشبهُ والدَك! ويا لجمالِ هذه البندقيّة! سوف يتحدّثُ النّاسُ عن هذه البندقيّة يا أورسو! وردّدَ آخر: عاش أورسو! لقد كنّا نعرفُ أنه سيعود. أوه يا أورسو. إن والدكَ كان سيُسرُّ جداً باستقبالِك!.. إنّه لم يصدقني، وهو يعرفُ الآن أنّني كنتُ على حق!

ـ عاش أورسو! وأطلقوا اثنتيْ عشرةَ طلقة.

بدا على اورسو أنّه غيرُ راضٍ فسكتَ أوّلَ الأمرِ ثم قال: «أنتُم في غايةِ اللّطف يا أصدقائي لكنّي لا أُريدُ نصيحةً واحدةً منكم فأنا أعرفُ ما عليّ انْ أفعلَه.»

ـ إنه محُقّ! إنه محقّ! انتَ تعرفُ أنّنا سنُساعدُكَ دوماً!

ـ أعرفُ ذلك لكنّي لستُ بحاجةٍ لأحد. عودوا الى عنزاتِكم فانا اعرفُ طريقَ بياترانيرا.

قال الرّجلُ العجوز:

ــ هذا حسنٌ، لكن عندما تنطقُ بندقيّتكَ الضخمةَ يا أورس أنطون، فإنّ بندقيّتي العجوز كصاحِبها لنْ تسكتْ.

ــ شكراً يا بولو غريفو، لكن اذهب ودَعْنا نكملُ طريقنا لوحدِنا.

إتجهتِ المجموعةُ الصّغيرةُ الى الامامِ على ظهورِ الجيادِ نحو القرية. قال بولو غريفو العجوز لأصدقائه: «إنّني افهمُه! إنني افهمُه! إنّه لا يقول ما يريدُ فعلَه بل يفعلُه، فهو شديدُ الشّبهِ بأبيه! إنّ حياةَ العمدةِ في خطر.»

وهكذا دخل رئيسُ أسرةِ ديللاريبيا قريتَه وعاد الى دار أهله الكبيرةِ فخرج كلُّ أصدقاءِ عائلتِه لِملاقاتِه مُجتمعين. في هذه الأثناء كان العُمدة وأصدقاؤه يتطلّعون من وراءِ نوافذِهم المُغلقة.

هناك ساحةٌ تتوسطُ تقريباً قريةَ بياترانيرا، وفي طرفِها الشّمالي يرى المرءُ دارَ آل ديللاريبيا، بينما تقعُ دارُ آل باريسيني في الطّرفِ الآخرِ الجنوبي، وكلا البيتيْن المتقابليْن كبيرٌ ومُريح.

كان على اورسو أنْ يمرَّ امام دارِ العمدةِ كي يعودَ الى دارِه، لكنّ كولومبا كانتْ تُفضّلُ سلوكَ طريقٍ أطولَ فقال اورسو:

«لِمَ نُزعجُ أنفسنا؟ إنّ السّاحةَ للجميع.» ثم دفعَ جوادَه إلى الامام.

قالت كولومبا بصوتٍ مُنخفض: «يا للشجاعة!.. سيُثأرُ لكَ يا والدي» ثم وقفتْ بين دارِ آل باريسيني وأخيها ولم تُحوّل ناظريها عن نوافذِ أعدائِها المُغلقة.

قالت: «إنّهم خائفون أنظروا إليهم فقد شرعوا يحترسون! لكنهم سيضطرون للخروجِ يوماً!..»

وعندما رأى سكانُ بياترانيرا أورسو في الجهةِ الجنوبيّة من السّاحة حيث لم يمرَّ ايُّ فردٍ من آل ديللاريبيا منذُ زمنٍ طويل، تعجبّوا حقاً وصمتوا لكنّهم عندَ حلولِ المساء سيتحدثون عن ذلك الى ما لا نهاية.

«لحسنِ الحظّ لم يعُد بعد ابناء آل باريسيني وإلاّ لم يتركوا عدوّهم يمرُّ هكذا على أرضِهم ولجَعَلوهُ يدفعُ الثّمنَ غالياً.»

أضاف رجلٌ عجوز: «أُذكروا ما سأقولُه لكم. لقد أمعنتُ اليوم النّظرَ في وجهِ كولومبا: إنّ امراً ما يدورُ في رأسِها، وعما قريب سيكونُ هناك «لحمُ مجزرة» في بياترانيرا.

إستقرَّ اورسو في دارِه، فذكّرتْهُ رؤيةُ أثاثِ اهلِه الذي احبّه كثيراً بلحظاتٍ حلوةٍ وحزينة، وبدا له بيتُه فجأةً صغيراً،

فقيراً، وغيرَ مريح بالقدرِ الذي يسمحُ باستقبالِ الآنسة نيفيل.

جلس الى المائدة لتناوُلِ العشاءِ، وعندما رأتْه كولومبا حزيناً قللتْ من كلامِها. وحين انتهى من الاكلِ تركتْهُ وحيداً ففكّر: «إنّ القريةَ بأَسرِها تنتظرُ أنْ أثأر لوالدي. لكنْ ممّن سأثأر؟» نظر الى الخاتمِ الذي قدّمتهُ له الآنسة ليديا: «الحياةُ تتطلّبُ شيئاً من الشجاعة... فقال: سوف يكون لديّ الشجّاعة.

قُرِعَ البابُ وكان اللّيلُ قد هبط فمنْ يمكنُ أنْ يأتيَ في هذه السّاعة؟ قالتْ كولومبا وهي تعدو الى الباب وتفتحُه: «ليس هذا بالشيء الهام». دخلتْ بنتٌ صغيرةٌ نحيلةٌ في العاشرةِ من عمرِها، قد لوّحتْ بشرَتَها الشّمسُ، وعندما رأتْ اورسو توقّفتْ مُتضايقةً فحيّتْهُ ثم تحدّثَتْ الى كولومبا وأعطتْها طرائدَ اصطادَها عمُّها. قالتْ لها كولومبا:

ـ شكراً، هل عمُّكِ بصحّةٍ جيدة؟

ـ إنه بصحّةٍ جيدةٍ جداً يا آنسة. لم استطعِ المجيءَ قبلَ الان لأنني بقيتُ ثلاثَ ساعاتٍ انتظرُه في الغابة.

ـ ولمْ تأكلي؟

ـ كلا يا آنسة فلم يتّسعْ وقتي لذلك.

ـ سوف نُعطيكِ بعضَ الحساء، فهل لا يزالُ لدى عمّكِ خبز؟

ـ مقدارٌ قليلٌ يا آنسة، لكنْ يلزمُهُ على الأخصّ رصاصٌ لبندقيته.

ـ سوف أُعطيكِ كلَّ ذلك.

سأل اورسو: «مَنْ هو ذاكَ الرّجل؟» فقالت كولومبا: إنّه فارٌّ مسكينٌ يعيشُ في الغابةِ وتُعنى به ابنةُ اخيه هذه.

ـ وما الذي فعلَه كي يعيشَ هكذا في الغابات؟

ـ لقد قتلَ الرّجلَ الذي قتلَ اباه.

خفض اورسو رأسَه وتناوَلَ المصباحَ فصعد الى غرفتِه دون أنْ يُجيب. أعطتْ كولومبا رزمةً ضخمةً للطّفلةِ وقالتْ لها: «ينبغي أنْ ينتبه عمّكِ جيداً إلى أورسو وأنْ يُدافعَ عنه.»

* * *

امضى أورسو وقتاً طويلاً قبلَ أنْ ينامَ، وفي اليومِ التالي استيقظ في ساعةٍ مُتأخرة، فكانت أُولى نظراتِه لدارِ اعدائِه، فنزل وبحثَ عن أُختِه فوجدَها في المطبخ. سألها: «ماذا تفعلينَ هناك؟»

— ليس لديك رصاصٌ لبندقيّة العقيد، فأنا أُعدّه لك. ها هو.

— إنني لله الحمدُ لا أَحتاجُه.

— لقد نسيتَ يا أخي بلدَكَ والنّاسَ المُحيطين بك.

— إذا كنتُ قد نسيتهُم فأنتِ هنا لِتذْكيري بهم.. قولي لي أَلَمْ تصلْ حقيبةٌ كبيرةٌ منذُ بضعةِ ايام؟

— نعم يا اخي، هل تريدُ أنْ أَحملَها لك؟

— أنتِ تحملينها! لن تكونَ لديكِ القوّة على ذلك.

— إنّني لستُ ضعيفةً بالقدرِ الذي تَظنّه!

قالتْ ذلك ورفعتِ الحقيبةَ الضّخمة لوحدِها فخفّ أورسو لمساعدتِها قائلاً: «إنّ فيها ملابسَ لك. أنظري!..

قالت كولومبا:

— كم هي جميلة! سأضعها في الخزانةِ لأنني الآن في حِداد.

— لا يجب أنْ تبقَيْ في الحِدادِ وقتاً طويلاً.

— إن الرّجلَ الذي سيجعلُني أخلعُ ثيابَ الحدادِ، سوف يُلبسُها للنّساءِ هناك. وأشارت الى دارِ آل باريسيني فلم يُجبْ أورسو. أضافتْ كولومبا بلطف: «سوف أقدّمُ شيئاً انا ايضاً.

إنّ ملابسَكَ اجملُ ممّا ينبغي بالنسبةِ لنا، ويجبُ أنْ تحتفظَ بها للآنسة نيفيل.»

ثم أحضرتْ له سُترةَ صيّادٍ وسلاحَ ابيه. نظر أورسو الى نفسه في المرآة وقال: «إنّني ابدو بهذه الملابسِ كخارجٍ على القانون في المسرح.»

مرّتْ بضعةُ أيام لم تتحدّثْ فيها كولومبا عن آل باريسيني بل أكثرت من الاعتناءِ بأخيها الذي اهتمّ بها بدورِه، فجعلها تقرأ كتُباً فرنسيّةً وإيطالية.

ذاتَ صباح، خرجت كولومبا لحظةً بعد الغداء ثم عادتْ وعلى رأسِها منديلُها الأسود فقالت: «هل تريدُ الخروجَ معي يا اخي؟» ردّ أورسو وهو يقدّمُ لها ذراعَهُ: «الى أين تُريدين الذّهاب؟»

— لستُ بحاجةٍ لذراعِكَ، لكنْ خُذْ بندقيتكَ إذ لا ينبغي للرّجل أنْ يخرجَ دون سلاح.

نادتْ كولومبا كلبَها ميسشاتي وخرجت مع اخيها فاجتازا الكروم. قالتْ كولومبا: «إذا سمعتَ نُباحَ الكلبِ يا أخي، فهيِّءْ بندقيّتك وتوقّفْ عن التقدّم.»

سارا عشرَ دقائقٍ توقّفتْ بعدَها كولومبا في طريقٍ أجوفَ

امامَ كومةٍ من الأغصانِ قائلة: «هنا مات والدُنا يا اورسو.» ثم ركعتْ فاقترب اورسو منها وأخذ يبكي. بعدَ بضعِ دقائق نهضتْ كولومبا وقد جفّتْ عيناها فسلكا بصمتٍ طريقَ القريةِ وعادا الى دارِهما حيثُ صعد اورسو الى غرفته فأحضرتْ له كولومبا علبةً فتحتها وقالت: «اليكَ قميصَ والدِنا الملطّخ بالدّم يا أورسو.» ثم رمتْ به على ركبتيْه مُضيفةً: اليكَ الرّصاصتيْنِ اللّتيْن قتلتاه.» ثم وضعتهُما فوقَ القميص وصاحت وهي ترتمي بين ذراعيْ أخيها: «أورسو، يا أخي، سوف تثأرُ له.» قبّلتْهُ بكلِّ قُواها وقبّلتْ ايضاً القميص والرصاصتيْن وغادرتِ الغُرفة.

تأمّل أورسو طويلاً القميصَ المغطّى بالدّم وأخيراً وبعدَ جهد، أعاده الى العلبةِ وركضَ الى الطّرفِ الآخرِ من الغُرفة فارتمى على سريره وكلماتُ أختِه الأخيرة تُدوّي في أذنيْه. شعرَ بحاجةٍ للسّيرِ في الريّف ولتنشّق الهواءِ الباردِ، فخرج دون أنْ يعرفَ له هدفاً.

أنعشه الهواءُ فحاولَ أنْ يرى بوضوحٍ ما يعتملُ في قرارةِ نفسِه لكنّ الأمرَ استعصى عليه. ما الذي يجبُ أنْ يفعلَه؟.. لقد وجدَه اخيراً: سوف يهزأُ من احدِ اولادِ العمدةِ وهكذا يستطيعُ أنْ يبارزَه.

عاد الى القريةِ فسمعَ غناءَ بنتٍ صغيرةٍ هي شيلينا التي رآها عند أُختِه. توقّف وأصغى فتعرّف على «مرثاة» كولومبا وقال للبنتِ بهيئةٍ مُرعبة: «أمنعكِ من غنائها» ثم أضاف وهو أكثرُ لطفاً: «ماذا تحملينَ يا صغيرتي؟» لم تُجبْ شيلينا فرفعَ القماشَ الذي يلفّ رزمةً ضخمةً ورأى خبزاً ومؤناً أُخرى. سألها: لِمَنْ تحملينَ هذا الخبز يا ابنتي؟

ـ إنّك تعرفُ ذلك جيداً يا سيدي، لعمّي.

في هذه اللّحظةِ وصل رجلانِ رثّا الملابسِ يحملُ كلٌّ منهما بندقيّةً في يدِهِ فألقيا التحيّةَ على اورسو وقال اكبرهُما سناً: «كم أنا مسرورٌ بلقائِكَ من جديد! ألاَ تتعرّفُ عليّ؟» ردَّ اورسو: «كلا.»

ـ إنّ اللّحية تُغيرُ وجهَ الإنسان. أنا براندو سافيللي، وكنتُ معكَ في الجيش.

ـ أهذا انت؟ ماذا تفعلُ هنا؟

ـ كانت لي قضيةٌ تنتظرُني في هذا البلد!.. أنتِ بنتٌ طيبةٌ يا شيلي فقدّمي لنا بسرعةٍ ما نأكلُه لأنّنا جائعان. هل تريدُ أنْ تُشاركَنا طعامنا أيها الملازم؟

ـ لا، شكراً.

ــ هل تركتَ أنتَ ايضاً الجيش؟ أَعُدْتَ بدون شكٍ لتسويةِ امرك؟ ثم وجّهَ الكلامَ الى رفيقه فقال: «هَلُمّ الى المائدة!»

ــ أيهّا السيد أورسو، إنّني أُقدّمُ لك صديقاً كان طالباً لكنّه الان يعيشُ في الغابةِ معي منذُ أنْ ثأرَ لأخيه. وإذا كنتَ لا تريدُ أنْ تأكلَ معنا، فينبغي ألاّ تدع الآنسة كولومبا تنتظرُكَ، وألاّ تتجوّل في الطّرقاتِ عندما تغيبُ الشمس. لِمَ خرجتَ دون بندقيّة؟ يوجدُ هنا اشرار. اليومَ يمُكنكَ أنْ تطمئنّ فآل باريسيني يستقبلونَ المحافظَ في دارهم... لكنهم غداً سيكونون لوحدِهم. إنّ فنستالو شاب شرّير وأورلاندوسيو ليسَ افضلَ منه. حاول أنْ تلقاهُما الواحدَ بعد الآخر، لكنْ كُنْ حذِراً!

ــ شكراً للنصيحة، لكنْ إذا لم يبحثا عنّي، فليس لديّ ما اقوله لهما.

لم يجبِ الفارُّ من وجهِ العدالةِ فنهض اورسو لِيذهب. قال: «ربمّا الْتقينا يوماً في الغابة!»

* * *

عاد أورسو الى دارِه في ساعةٍ مُتأخرةٍ وكانت كولومبا في انتظاره فحدثّتها عن الفارّيْن من وجهِ العدالةِ اللّذيْن التقاهُما

في الغابةِ وقال: ربمّا كانا اقلَّ شرّاً من اشخاصٍ آخرين لا يسكنُون الغابة..

لم تُبدِ سرورها، لكنّها كانتْ راضيةً لسماعِهِ يتحدّث بهذه الطّريقة. مرّتْ بضعُ دقائق قبل أنْ تقول:

ــ هل تعرفُ يا أخي أنّ شارل بياتري قد مات أثناء اللّيل؟

ــ من هُوَ بياتري هذا؟

ــ إنّه زوجُ مادلين، المرأةُ التي كانت قربَ والدِنا لحظةَ موته والتي تسلّمْت محفظته. لقد أتت تطلُب منّي إنشادَ «مرثاة» لزوجِها فيجب أنْ تأتي انت ايضاً. إنهم جيرانُنا، وليس من التهذيب ألاّ نذهب.

ــ أنا لا أحبُّ كثيراً أنْ تُغنّي أُختي أمامَ الجمهور.

ــ إن المرثاةَ عادةٌ قديمةٌ عندنا يا أورسو وأنا الوحيدةُ التي ما زالتْ تعرفُ إنشادَها.

ــ إذهبي الى دارِ مادلين اذا شئتِ يا كولومبا سأذهبُ معكِ إذا رأيتِ أنّ عليّ الذّهابَ إليها، لكنّني أسألُكِ ألاّ تُنشدي المرثاةَ أمامَ الميت، فذلك لا يليقُ بسِنِك يا أُختاه.

ــ لقد شئتُ أنْ أُغني قصيدةً في اجاكسيو لتلك الفتاة

الأجنبيةِ التي تسخرُ من عاداتِنا الكورسيكيّة القديمة، أَفَلا استطيعُ أنْ اقومَ اليومَ بذلك من اجلِ هؤلاء المساكين؟ . . . إنني أتألّمَ جداً عندما أُغنّي هكذا يا أخي لأنّني اتذكرُ كلَّ اللّحظاتِ التعيسةِ في حياتي، لكنْ يجبُ عليَّ أنْ افعل! . . . سأمرضُ غداً لذلك. . . فاسمحْ لي يا أخي لأنّه واجب.

ـ إفعلي إذنْ ما تشائين.

وصل اورسو وأختُه الى دار بياتري حيثُ كانَ الميّتُ مسجىً على طاولة، وبجانبه زوجتُه وابنُه. كانتِ النّساءُ يُشغلنَ جانباً من الغرفةِ وراءهم بينما اصطفّ الرجالُ في جانبٍ آخر، وقد خيَّمَ الصمتُ على القاعة.

قبّلتْ كولومبا مادلين وتناولتْ يدَها فبقيتْ بضعَ دقائقَ على هذه الحال، ثم نظرت الى الميت بُرهةً طويلةً وانحنتْ عليه بوجهٍ شاحبٍ وبدأتْ تُغنّي. بدأتْ بتوجيهِ الكلام الى الميّت ثم الى أُسرتِه. كانتْ قصيدتُها شديدة الجمالِ والحزن فبكى سامِعوها كما بكى أورسو الواقفُ في زاويةٍ مُظلمةٍ من الغرفة.

وبينما كانت كولومبا تُغني، دخلَ غرباءُ هم المحافظُ والعمدةُ وولداه. تعرّف اورسو فوراً على عدوِّ والِده فثار الغضبُ في نفسِه عندما رأى الشابيْن يبتسمانِ وهما يُصغيان إلى أُخته.

رأتْهما كولومبا فاكفهرّ وجهُها وتوقّفتْ لحظةً عن الغناءِ ثم تابعتْ مرثاتها:

سيتركك أصدقاؤُك يا شارل بياتري
فقد بكوك.
أمّا مَنْ فقدتْ اهلها، فهي الوحيدةُ التي لن تبكيك.
ولمَ تبكيك؟
لقد غفوتَ وسطَ أسرتك
لكنّ الفتاةَ التعيسة تبكي أباها الذي اغتيل من الخلف
لقد جمعتُ دمَه
وبذرتُه في بياترانيرا
وذات يوم سيغطي الدّمَ المعادي الدّمُ العادلُ

قالتْ تلك الكلمات وارتمتْ على كرسيٍّ فغطتْ وجهَها بمنديلها وأخذتْ تبكي. أحاطتْ بها النّسوةُ ووجّهَ رجالٌ عديدونَ نظراتٍ شرّيرةً للعمدة وولديْه الذين سارعوا الى الإنصراف.

إقتربَ أورسو من أُختِه فأخذ بذراعِها وخرجا معاً. تناولَ بعضُ الأصدقاءِ مديّهم فوضعوها في كُمٍّ سترتِهم وتبعوهُم حتى باب منزلهم.

* * *

أسندتْ كولومبا رأسَها الى كتفِ أخيها وأمسكتْ بإحدى يديْه فشدّتْ عليها بيديها دون أنْ تستطيعَ النّطق بكلمةٍ واحدة. لكنّ البابَ قُرِع!

ـ مَنِ الطّارق؟

ـ السيد المحافظ!

إعتذر المحافظُ لحضوره المتأخّر ثم قال لأورسو: «إنّ الآنسةَ نيفيل قد سلّمتني هذه الرسالةَ المُوجهةَ لك يا سيد ديللاربيا.» قال أورسو وهو بمُنتهى السّعادة: رسالةٌ من الآنسة نيفيل!

ـ إنّني لا احملُها معي لكنّك ستتسلّمها خلالَ خمسِ دقائق. لقد مرض والدُها مرضاً شديداً لكنّ صحّته تحسّنت الآن، وستراهُما عمّا قريب يصلان الى بياترانيرا... لقد حدّثني كثيراً عن قصّةِ أُسرتكم المُحزنة: إنّك تعرفُ أنّ النّاس كثيراً ما يكذِبون وأنّك قد تكونُ مُخطئاً إذا...

ـ إنكِ تعبةٌ جداً يا كولومبا وعليكِ أنْ تذهبي للنّوم.

لكنّ الفتاةَ استمرتْ تنظر الى المحافظ بعينيْها الكبيرتيْن الداكِنتيْنِ، فتابع: إنّ السيد باريسيني يعرضُ عليكَ المُصالحة

وهو مصمم على نسيانِ كل شيء؟ وسيسعدُني انا شخصياً أنْ تُصبحوا جيراناً طيبين.

ـ أنا لم أُفكّر أبداً يا سيدي أنّ المحامي باريسيني قد قتلَ والدي... لكنّني لن أُصبحَ أبداً صديقَه. لقد جعلَ النّاسَ يعتقدونَ أنّ والدي كتبَ الرسالةَ الموقعة باسم «أجوستيني» وهذه الرّسالةُ كانتْ دون شك سببَ موته، وهذا ما لا أَستطيعُ نسيانَه.

صمت المحافظُ لحظةً ثم قال: «لقد اردتُ أنْ أُعلمكَ أنّنا نعرفُ الآنَ مَنْ كتبَ تلك الرسالة.» سألتْ كولومبا وهي تتقدّم نحو المحافظ:

«ومَنْ هو؟»

ـ إنه رجلٌ خطِرٌ لا يُساوي حبلاً لشنقِه، يُدعى توما سوبيانكي، وهو سارق. أنتم معشرَ الكورسيكيّين لا تغفرونَ أبداً لمثلِ هؤلاء النّاس. لقد أُوقفَ واعترفَ أمامَ المحكمةِ أنّه قد كتبَ تلك الرّسالة.

ـ أنا لا اعرف هذا الرّجل، فلِم يفعلُ ذلك؟

ـ إنّه، قالتْ كولومبا، رجلٌ كان يسكنُ مع أخيه تيودور مزرعةً لوالدِنا، وهو شرّيرٌ اعتادَ الكذِب.

قالَ المحافظ:

ـ سوف تفهمان. إنّ المزرعةَ التي يسكنُها تيودور هي نفسُها التي كان باريسيني يريدُ استردادها من والد كما، وكان العقيدُ يؤجّرها له لقاءَ مبلغٍ بسيطٍ من المال، لكنّ باريسيني كان سيطلبُ مبلغاً أكبرَ بكثير. لذا، ارادَ توماسو أنْ يُساعد أخاه فكتبَ الرّسالةَ ووقّعها باسمِ الهارب اجوستيني!

وانتما تعرفان البقيّة.

قالت كولومبا:

ـ لقد ذهبَ اولاندروسيو باريسيني الى باستيا منذُ شهر. وربّما قابلَ توماسو ودفعَ له كيْ يسردَ هذه القصّة.

ردّ المحافظ:

ـ يا آنستي، إذا استمرّيتما على هذه الحال فسيُصبحُ من الصّعبِ العثورُ يوماً على الحقيقة. وأنتَ يا سيدي، ماذا تعتقد؟ لقد أوقفَ هذا الرجلُ لغلطةٍ خفيفة، فليس من المعقولِ أنْ يتركَ نفسه يُعاقبُ من اجلِ غلطة بسيطة اجابت كولومبا بقوّة: «إن العدالةَ لن تعاقبَ ابداً توماسوبيانكي لأنّه مستعدٌّ لأيِّ شيءٍ من اجلِ استردادِ حريّتهِ، وأنا واثقةٌ من ذلك»

هز المحافظُ كتفيْه وقال: «لقد قلتُ لكَ يا سيدي كلَّ ما

علمتُ به، وأنا ذاهبُ الآن لكنّي آملُ أنْ يُنير لكَ العقلُ السبيلَ»

إعتذر اورسو ببضعِ كلماتٍ عن كولومبا فقد كان هو ايضاً يعتقدُ أنّ توماسو قد كتبَ الرّسالة، ونهضَ المحافظُ للخروج قائلاً: «لو لم يكنِ الوقتُ متأخراً جداً لطلبتُ منكَ أنْ تأتي معي لاستلامِ رسالةِ الآنسة نيفيل، وهكذا تستطيعُ أنْ تقولَ للسيد باريسيني ما قلتُه لي فينتهي كلُّ شيء.» صاحتْ كولومبا: «إن أورسو ديللاريبيا لن يدخلَ ابداً دار أحدِ افرادِ عائلةِ باريسيني. لقد خُدعتَ يا سيدي فأنتَ لا تعرفُ العمدة. إنه اخبثُ النّاس. لذا أطلب منكَ ألاّ تُكره أورسو على أنْ يفعلَ ذلك، فلن أغفرهُ ابداً.»

قال أورسو: لقد فقدت عقلك يا كولومبا.

ـ يا أورسو، إنّ بينكَ وبين آل باريسيني دماً، فلن تذهبَ لِعندهم.

ـ أختاه!

ـ لا يا أخي لن تذهب، وإلاّ غادرتُ هذا المنزلَ ولنْ تراني ابداً. ثمّ ارتمت على ركبتيْها.

توجّه المحافظُ نحو البابِ فتوقّفَ وبدا عليه أنّه ينتظرُ اورسو الذي قال:

— لا أستطيعُ أنْ اتركَها الآن يا سيدي. غدا، إذا . .

— سوف ارحلُ باكراً وآملُ أنْ يحملَ اللّيلُ النُّصحَ لك.

قالتْ كولومبا:

— سأرسلُ بعضهم معكَ كي تُسلِّمَه رسالةَ الآنسة نيفيل.

إنصرف المحافظُ فقال أورسو لأُختِه: «لقد سبّبتِ لي ألماً شديداً يا كولومبا. يجب أنْ تفهمي!». أجابت: «لقد أمهلْتني حتى الغد، فلديّ قليلٌ من الوقتِ لكنّي لا أزالُ آمل.» ثم صعدت ركضاً الى غُرفتِها وسمعها تفتحُ خزانةً كان العقيدُ يُودعُها اوراقَه الهامّة.

* * *

كانتِ الرسالةُ التي حُملتْ الى أورسو مُؤلّفةً من أربعِ صفحات، سَعِدَ بها الشابُّ كثيراً. شرحت الآنسةُ ليديا أنّ أباها قد أُصيب بحمّى لأنّ قدميْه قدِ ابتلّتا بينما كان يصطادُ قُربَ البحر، وأعلمت أورسو أنّهما سيصلانِ بياترانيرا قريباً. وفي انتظارِ ذلك طلبت منه أنْ يصغيَ لنصائح المحافظ.

أعاد اورسو قراءةَ تلك الرّسالةِ الطّويلةِ ثلاث أو أربع مرّات بسرور زائدٍ مُتسائلاً عمّا إذا كانت الآنسةُ ليديا يمكنُ أنْ تهتمّ به. كان أحدُ سكانِ القريةِ ذاهباً في اللّيلةِ نفسِها الى اجاكسيو فسارعَ بتحميله جواباً مُستفيضاً الى الفتاة.

أمضتْ كولومبا مُعظمَ اللّيلِ بقراءةِ أوراقٍ قديمة، وقبل طلوعِ النّهارِ بقليلٍ أدخلتْ الى بيتِها رجلينِ رثّي الملابسِ بدأتْ باقتيادِهما الى المطبخِ حيث قدّمتْ لهما طعاماً. أمّا مَنْ هما هذان الرّجلان، فهذا ما سنعرفُه عمّا قليل.

* * *

في حواليْ الساعةِ السّادسةِ صباحاً أتى مَنْ يقولُ لكولومبا إنّ المحافظَ على وشكِ الرّحيلِ وإنّه ينتظرُ أخاها فقالتْ: «إنّ أخي قدوقعَ في السلم وهو لا يستطيعُ المشي. فهل تريدُ أنْ تطلبَ من السيد المحافِظ أنْ يعذرَنا؟ قُل له إنّنا سنكونُ جدُّ مسرْورين لو تكرّمَ بالحضورِ الى هنا..»

وعندما نزل أورسو من غرفتِه قالتْ له كولومبا بكثيرٍ من الهدوءِ: «إنّ السيّدَ المحافظَ يطلبُ منك أنْ تنتظرَه هنا.»

بعدَ نصفِ ساعةٍ فُتح بابُهما ودخل المحافظُ يتبعهُ العُمدة وولداه فتعجب لأنّه وجد أورسو واقفاً يسيرُ دون عناء. عندئذٍ اعتذرت كولومبا لكذْبتِها وطلبتْ منه المعذرةَ مضيفة: «سيدي المحافظ، لو كنتَ تسكنُ داراً أُخرى لذهبَ أخي البارحة لتحيّتك».

إعتذر أورسو بدورِه وشكا بقوةٍ من تصرّفاتِ أختِه.. فعرف المحافظُ وباريسيني العجوزُ أنّه صادقٌ لكنّ ولديْ

العمدة لم يكونا من هذا الرأي فقال أورلانـدوسيو: «إنهم يسخرونَ منّا» وقال فنستنالو: «لو كانت أُختي لانتزعتُ منها بسرعةِ الرّغبة في العودةِ الى مثل هذا التصرّف. . .

سمعَ أورسو هذه الكلماتِ فنظرَ الى الشابّينِ عابساً لكن الجميعَ جلسوا وبقيت كولومبا واقفةً قُربَ بابِ المطبخ. عندئذٍ بدأ المحافظُ كلامَه:

«إنّ أُسرتيْكُما يجبُ أنْ تُصبحا صديقتين، وهـذا ممّا يُسعدني. إنّ أورسو يا سيدي العمدة، لم يظنّ أبداً أنّك قد قتلتَ أباه. . .»

لكنّ كولومبا اتجهتْ نحوه وفي يدها ورقةٌ فقالت: سيكونُ من دواعي سرُوري أنْ أرى نهايةَ الحرب بين عائلتيْنا، لكنْ وقبلَ ذلك يجبُ شرحَ كلِّ شيء. سيدي المحافظ، لقد قلتُ لكَ البارحةَ أنّ أورلاندوسيو قد قابلَ توماسوبيانكي في باستيا. . .

صاح أورلاندوسيو:

ــ هذا كذب، فأنا لم أرَه.

ــ لقد قلت أنّ توماسو قد كتبَ الرّسالة باسمِ أجوستيني كيْ يحتفظَ أخوه بمزرعةِ والدي.

قال المحافظ: «هذا صحيح.»

ــ هذه الرسالةُ مُؤرخةٌ في ١١ تموز حينما كان توماسو عند أخيه.

ــ قال العمدةُ بقليلٍ من الهدوء: نعم. فصاحت كولومبا:

ــ هذه القضيّةُ لم تكنْ تهمُّ توماسو لأنّ أخاه تيودور كان قد كتبَ لوالِده أنّه سيترك مزرعتَنا وهاكُم رسالتَه المؤرخة في أولِ تموز.

أعطتْ كولومبا الورقةَ للمحافظِ فتعجّبَ الجميعُ وصاحَ أورلاندوسيو وهو ينهضُ غاضباً:

ــ إنهم يسخرونَ منّا فَلْنذهبْ.

قالت كولومبا:

ــ إنتظروا، فيجبُ أنْ أُبرهنَ أنّ هؤلاء السّادة قد كذبوا ايضاً.

فتحتْ بابَ المطبخِ فدخلَ القاعةَ براندولاسيو وصديقُه جيوكانتو كاستريكوني والكلبُ بريسكو. كانا غيرَ مُسلحيْن فنهضَ العمدةُ خائفاً، ووقف ولداه أمامَه بشجاعةٍ ويَدهُما في جيْبِهما تبحثُ فيها عن سكينِهما. أمسكَ أورسو بعنقِ براندولاسيو وصاح به: «ماذا أتيتَ تفعلُ هنا أيها التّعيس؟»

حاول العمدةُ أنْ يفتحَ البابَ لكنّه كان قد أُغلق من

الخارج. قال براندولاسيو: «أيّها السادة الطيّبون، لا تخافوا منّي، وأنت يا سيدي المحافظ، أنا في خدمتك. أيّها الملازم سوف تقتلُني، فكنْ اكثر لطفاً. لقد أتينا الى هنا لنقولَ ما نعرفُه. هيّا، تكلمّ يا جيوكانتو، أنتَ الذي كنتَ طالباً.

قال الطالب:

ـ سيدي المحافظ، لم يكنْ لي شرفُ معرفةِ الآنسةِ التي طلبتْ منّي أنْ اقصّ عليكَ ما أعرفُه عن توماسو بيانكي. لقد اعتقلَ في باستيا في نفسِ الوقتِ الذي اعتقلتُ فيه منذُ ثلاثةِ أسابيع . . .

ـ ليس لديّ ما أسمعُه من رجلٍ مثلك . .

ـ هل أنتَ السيّد في دارِكَ يا سيد ديللاريبيا؟ مُر بفتح هذا الباب.

قالتْ كولومبا:

ـ سيدي المحافظ، تفضّلْ بالإصغاءِ الى هذا الرّجل. أنتَ هنا كي تُؤمّنَ العدالة للجميع، ومن واجبكَ أنْ تبحثَ عن الحقيقة. تكلّم يا جيوكانتو.

صاح الثلاثةُ من آل باريسيني:

ـ لا تُصغِ إليه!

قال الهاربُ من وجهِ العدالةِ وهو يبتسمُ:

ـ إذا تكلّم الجميعُ في وقتٍ واحدٍ فلن نتفاهم. عندما كنتُ موقوفاً كان توماسو هذا جاري لا صديقي. وكان السيد أورلاندوسيو يأتي غالباً ليراه . . .

صاح الأخوان معاً:

ـ هذا كذب.

ـ كان لدى توماسو نفوذٌ ولم يكن يعُوزه شيء. وذات يوم قال لي: «انّ المحامي باريسيني وعدني بإخراجي من هنا، وسأذهبُ ابيضَ كالثّلج وفي جيبي نقودٌ كثيرةٌ.»

قال أورلاندوسيو:

ـ كلّ ما يقولُه هذا الرّجل ما هو إلاّ مجموعةٌ من الاكاذيب.

قال براندولاسيو:

ـ لا تسخرْ من الطّالب يا اورلاندوسيو فهو يعرفُ كيف يُنطقُ بندقيّته.

قال المحافظُ وهو يضربُ الأرضَ بقدمِه:

ـ ألنْ تدعني اخرجُ يا سيد ديللاريبيا؟

فصاح أورسو:

— إفتحوا الباب.

وقال أورلاندوسيو:

— إنتظروا لحظة. علينا أنْ نذهبَ نحن أولاً.

رماهُ المحافظُ بنظرةٍ باردة وخرج المطلوبان من الحديقة. قال أورسو: «يا سيد باريسيني، أنت رجلٌ شرّيرٌ وكاذب. سأشكوكَ للقاضي فربما كنتَ قاتلاً.

— وانا يا سيد ديللاريبيا سأشتكي ايضاً: لقد استقدمتَ هذينِ الفارّين من وجهِ العدالةِ الى دارك، وسيأمُر السيد المحافظ الشرطةَ باعتقالِك.

— إنّ المحافظَ سيؤدّي واجبه، وسيُنفذُ العدالة. إنني أُوجّه الكلامَ إليكم جميعاً أيها السادة..

خرج العُمدة وفنسنتالو من القاعةِ وتبِعَهُما أورلاندسيو وهو يتراجعُ، لكنّ أورسو قال له: «إنّ والدكَ رجلٌ عجوزٌ يمكنُني سحقه بضربةٍ واحدة، لكنّك ستدفعُ الثّمنَ أنتَ وأخوك...

شهر أورلاندوسيو سكينه وارتمى على أورسو كالمجنونِ، لكنّ كولومبا امسكتْ بذراعِه ولوته بقوّة. في هذه الأثناءِ وجّه اليه أورسو لكمةً في وجهه جعلتهُ يتراجعُ بضعَ خطوات. سقطتِ السكّينُ من يدِاورلاندوسيو، لكنّ فنسنتالو كان شاهراً

مِدْيتهُ فدخلَ مُجدداً الى الغرفة عندما قفزتْ كولومبا الى بندقيةٍ وبرهنتْ له أنّه لا يستطيعُ ان يكسب.

صاح أورلاندوسيو وهو يُغلقُ بابَ القاعةِ بقوّة: الى وقتٍ قريبٍ ياأورس انطون. وقال المحافظ: «ما هذا البلد! لقد أخطأتَ يا سيد ديللاريبيا، وأنا أطلبُ إليكَ الانتظارَ ريثما تبتُّ العدالةُ في هذه القضيةِ المنكوُدة.

— نعم يا سيدي المحافظ، لقد أخطأتُ بضربِ أورلاندوسيو لكنّني قد فعلتُ ولم أعُدْ أستطيعُ التّراجعَ، فيجبُ أنْ أُقاتلَه.

— لا إنّه سيُطلقُ عليكَ رصاصةً في ظهرِك.

— إنّ أورلاندوسيو شجاعٌ ولقد سارعَ بشهرِ سكّينه. ولربّما فعلتُ ما فعلَ لو كنتُ مكانَه، إنني سعيدٌ لأنّ يدَ أُختي ليْست يدَ بنتٍ صغيرة.

صاح المحافظ: «لن تتقاتلا، إنّني امنعكُما من ذلك.»

— هذه أُمُورنا الخاصّة.

— إنّني اقولُ لكُما انكما لن تتقاتلا.

— بِوُسعِك أنْ تقتلَني...، هذا إذا سلّمتُ نفسي..

أضافت كولومبا:

ـ إذا أمرتَ باعتقالِ أخي فسيدافعُ عنه نصفُ القريةِ وستنطلقُ البنادقُ لوحدِها.

ـ اذا أراد العمدةُ اعتقالي فسأُدافعُ عن نفسي..

قال المحافظ:

ـ إعتباراً من هذا اليوم، لم يعدْ باريسيني عمدة. إنني أطلبُ منكَ القليل: إبقَ هادئاً في دارك، وسأعودُ مع القاضي خلالَ ثلاثةِ أيّام. عِدْني ألاّ تُقاتل.

ـ لا استطيعُ أنْ أعدكَ بذلك يا سيدي فأنا اعتقدُ أنّ أورلاندوسيو سيطلبُ منّي القتالَ مُبارزة.

ـ إنّني أطلبُ منكَ فقط ألاّ تبحثَ عن أورلاندوسيو.

ـ أعدك بذلك.

ـ يجبُ أنْ أذهب. كَمْ من المصائب ربمّا تكونين قد هيأتِها اليوم!

ثم ذهب. قالتْ كولومبا:

«انتَ يا أورسو لستَ هنا على البر، فأورلاندوسيو لا يفقَهُ

شيئاً من مُبارزاتِك. لذا لا ينبغي أنْ يموتَ هذا الشيءُ ميتةً جميلة.

ـ أنتِ امرأةٌ قويةٌ يا عزيزتي كولومبا، وأنا مدينٌ لكِ بالكثير. لقد انقذتيني من طعنةِ سكين، لكنْ دعيني أتصرّفُ فهناك أمور لا تُدركينها. أعطني ما آكلُه.

وصل خمسةُ او ستةُ فلاّحين استدْعتهْم كولومبا لحراسةِ دارِ آل ديللاريبيا» وأتى عدةُ أشخاصٍ يضعون أنفسهم في خدمة اورسو. حتى إنّ الطّالبَ ـ الهاربَ نفسهَ كتب له رسالةً يَعدُه فيها أنْ يأتي لُمساعدتِه مع برانـدولاسيو إذا أقْحمَ العمـدة الشرطةَ في هذه القضيّة.

* * *

إنقضى اليومُ التّالي بهدوء. وفي المساء أرتْ كولومبا أخاها بسرورٍ رسالةً تلقّتها من الآنسة نيفيل:

عزيزتي الآنسة كولومبا.

علمتُ بكثيرٍ من السرورِ وبرسالةٍ من أخيكِ أنّه لم يعُد لكما أعداءُ في بياترانيرا فأسعدني ذلك جداً. إن والدي لم يعد يُحبُّ اجاكسيو منذ أنْ غاب عنها أخوكِ فلم يعُد يُحدِّثـه عن الحربِ أو يصطادُ معه. وفي خلالِ يومينْ سآتي لأطلبَ منكِ

شيئاً من الأجبانِ الجبليّة. فإلى القريبِ يا عزيزتي الآنسة كولومبا.

صديقتك ليديا نيفيل.

قال أورسو: ألم تتلقَّ إذن رسالتي الثانية؟

ـ وهل قلتَ لها ألا تأتي؟

ـ بعد الذي حصل لنا، لا نستطيعُ استقبالَ احد.

ـ كانت تقولُ لي أنها تودُّ رؤيةَ ثأرٍ جميل. وإذا شئتَ فسنُريها يا أورسو كيف نعرفُ أنْ نسحقَ اعداءَنا.

ـ هل تعرفينِ أنّ الخالقَ قد أخطأ حينما صنع منكِ امرأةً يا كولومبا؟ كان من الجائز أنْ تُصبحي جُندياً ممتازاً.

ـ ربمّا. على كلِّ حال، سأصنعُ جبناً طازجاً.

ـ هذا ليس ضرورياً إذْ يجبُ أنْ نُرسل بعضهم لتحذيرهما وإيقافهما قبل أنْ يتحركا.

ـ ماذا! أتريدُ إرسالَ بعضِهم في مثل هذا الوقت! . . . كم أرثي للهاربينَ من العدالةِ المساكينَ في هذه العاصفة! أتدْري ما الذي يجبُ عملَهُ يا أورسو؟ إذا هدأت العاصفة، إرحلْ غداً باكراً وسيكونُ من السهلِ عليكَ أنْ تلقاهما. واذا أصرّا على المجيء فسنستقبلُهما بسرورٍ زائد.

ـ أنا موافق، فَلْنذهبْ للنوم.

ـ ربمّا تعتقدُ يا أورسو أنّني كنتُ اريدُ الضّحك عندما حدثْتُك عن سحقِ اعدائنا. هل تعرفُ أننّا أقوياء بمعدّلِ اثنينْ ضدّ واحدٍ على الأقل؟ وإذا اردتَ فسأذهبُ الى الساحةِ وأسخرُ من نسائِهم فقد يخرجون. . . إنهّم خائفون جداً. . . وربما أطلقوا النّار عليَّ من بنادقهم وأخطأوني وعندئذٍ يحُسمُ كلُّ شيء ويكونونَ هُمُ البادئين. سَحقاً لهم. .

صَدَقْ أُختك يا أورسو، فالملابسُ السّوداءُ التي ستأتي سوف تقولُ كثيراً من الكلماتِ التي لا معنى لها وذلك دون جدوى لأنّ رجلَ القانون العجوز سيرُيهم النّجومَ وقتَ الظهيرة.

وقال أورسو متعجباً:

ـ أنت مخُيفةٌ يا اختي الحلوة، لكن اطمئنّي إذا لم اعمل على شنقِ آل باريسيني فَسأتدبّرُ امري كي تُنفّذَ العدالة.

ـ كلماّ عجّلتَ كان ذلك افضل. أيَّ جوادٍ ستمتطي غداً يا أورس انطون؟

ـ الأسود، فلم السؤال؟

ـ لأُقدّم له طعاماً.

صعدَ أورسو الى غرفتِهِ وانتظرت كولومبا. وعندما اعتقدتْ أنّه قد نام تناولتْ سكيّناً وانتعلتْ حذاءً ضخماً ودخلتِ الحديقةَ دون أنْ تُحدثَ ضجة، بعد ذلك ذهبت الى الحقلِ حيثُ توجدُ الخيولُ فجرحتْ بسكّينها أذنَ الحصانِ الأسود. وبدأ الحيوانُ المسكينُ يركضُ وهو يصيح. سُرّتْ كولومبا وعادت الى دارها دونَ أنْ تُحدثَ ضجّة. كانت في المطبخِ عندما ظهر أورسو. سألْتهُ: «ما الذي يحدُث؟» فأجابها: «خُيل إليّ أنّ بابَ الحديقةِ يُفتح».

ـ مُستحيلٌ وإلاّ لسمعْنا الكلب. إِنّني أُحبُّ أنْ أرى يا أخي أنّكَ تُدرك الخطر.

ـ إنّ دروسكِ تُؤتي ثمارَها. مساءً سعيداً.

في الصباح نزل باكراً من غرفته، حسن الهندام، لكنه لم يَنْسَ ان يضع سكينه في جيبه أو أن يأخذ بندقية العقيد. شرب فنجانَ قهوةٍ ثم ذهبَ إلى الحقلِ يقتاد جوادَه فتبعتهُ كولومبا. لكنّ أورسو توقّفَ إذ رأى أُذُنَ جوادِه الأسودِ الجميلِ دامية.. فقال: سوف يدفعُ لي آل باريسيني الثّمن!.

إنّ جرحَ حصانِ العدوّ في كورسيكا يعني السّخريةَ منه وتوعُّدَه بموتٍ قريب.

صاحتْ كولومبا: «ما الذي تنتظره؟ إنّهم يأتونَ فيجرحونَ

جيادَنا دون أنْ نرد!». وصاح الفلاّحون الذين سمعوا كلَّ شيء: «الثّأر!»

ردّ أورسو: إنني انا السيّدُ هنا وأريدُ أنْ أُطاع. وربما قتلتُ أوّلَ المُتحدّثين عن القتل. أحضروا لي الجواد الرّمادي.

قالت كولومبا: كيف ذلك يا أورسو؟ أيجرح جوادُك فلا تفعل شيئا؟

ـ لقد سبقَ أنْ قلتُ لكِ أنّ العدالةَ ستثأرُ لي من اولئك النّاس. إنهم يُظهرونَ شجاعتَهم ضدّ الحيواناتِ فقط.. والاّ فلنْ تحتاجي لِتَذْكيري بأنّي ابنُ أبي.

ـ حسناً فَلْننتظر.

ـ انه لامرٌ حسنٌ جداً يا أُختاه أنْ يكونَ المرءُ شجاعاً لكنْ يجب أنْ تستعدي الآن كي تُحسني استقبالَ أصدقائنا. إنّني ذاهبٌ فتعالي لتقبيلي.

ـ لنْ تذهبَ لوحدِكَ يا أورسو.

ـ لستُ بحاجةٍ لأحدٍ وتأكدي أنني لنْ أدعَ أُذني تُقطع.

* * *

سار أورسو في طريقهِ. إنّه الآن يُفكّرُ بالآنسةِ نيفيل وقد نسيَ اعداءَه. لكنّه رأى أمامَه شيلينا الصغيرةَ التي قالتْ له:

— إلى أينَ تذهبُ هكذا يا أورس انطون؟ إنّ عدوكَ أورلاندوسيو قريبٌ من هنا وهو ينتظرُك. عُدْ! عُدْ!

— آه! إنّه ينتظرُني! هل رأيتِه؟ في أيّ اتجاهٍ كان يسير؟

— كان نازلاً من هناك في الاتجاهِ الذي تقصدهُ.

— شكراً.

— إنتظرْ عمّي يا أورس أنطون فمعهُ لنْ يكونَ هناك خطر.

— لا تخافي يا شيلي؛ إنّني لستُ بحاجةٍ لعمّك.

— سأسيرُ امامكَ إذا شئت.

— شكراً، شكراً. فالأمرُ لا يستحقّ هذا العناء.

ذهب أورسو بسرعةٍ في الاتجاهِ الذي دلّتهُ عليه البنتُ الصغيرة. كان يتطلّعُ بانتباهٍ في كل اتجاهٍ ويتوقفُ احياناً كيْ يصغي. كانتِ الطّريقُ التي يسلُكُها الآن تجتازُ غابةً احترقتْ منذُ وقتٍ قليل، فأصبحتِ الأرضُ جرداءَ لا تُخفي احداً. اضطر أورسو للنّزولِ لأنّ الطريقَ سريعةُ الانحدار. وعن بعيدٍ رأى حقولاً مُحاطةً بجدرانٍ حجريّة.

كان على بُعدٍ اقلّ من عشرينَ متراً من هناك عندما رأى

أمامَه بندقيةً ثم رأساً ظهرتْ فوق احدِ الجدران. انخفضتِ البندقيّةُ فتعرّفَ على أورلاندوسيو وهو جاهزٌ لاطلاقِ النار.

سارع أورسو لرفعِ بندقيّته ونظرَ الاثنان الى بعضهما لحظةً قصيرة.

صاح أورسو: «قاتِلْ».. وكان لا يزالُ يتكلّمُ عندما أُطلقتِ النّارُ من بندقيّةِ أورلاندوسيو. وفي نفسِ الوقت تقريباً انطلقَ عيارٌ ناريٌّ ثانٍ من بندقيّةٍ على اليسار في الطرفِ الآخرِ من الطّريق أطلقَهُ رجلٌ لم يره. أصابتهُ الطّلقتان: الأولى وهي طلقةُ أورلاندوسيو اخترقت ذراعَه اليُسرى والأُخرى في صدره، فمزّقتْ سُترتَه وأوقفها نصلُ سكينهِ فجرحتْهُ جُرحاً خفيفاً. تدلّتْ ذراعُه اليُسرى ثقيلةً على ساقِه فخفض بندقيّته قليلاً لكنّه رفعها بسرعةٍ، وبيده اليُمنى فقط أطلقَ النّارَ على أورلاندوسيو فلم يَعُدْ يرى رأسَ عدّوه. عندئذٍ التفتَ الى اليسار وأطلقَ طلقتَه الثّانيةَ على رجلٍ مُحاطٍ بالدّخان لم يكن يراهُ تقريباً فاختفى هذا ايضاً. تتابعتِ الأربعُ طلقاتٍ بسرعةٍ كبيرة، وبعدَ طلقةِ أورسو الأخيرة، عاد الصّمتُ فخيّمَ على كلّ شيء وتصاعد الدّخانُ الخارجُ من سلاحهِ ببطءٍ نحو السماء. لم تَعُدْ هناك أيّةُ حركةٍ او اقل ضجةٍ وراءَ الجدران.

توقّع أورسو عياراً نارياً آخر فسارَ بضعَ خطواتٍ كيْ يقفَ

وراءَ شجرةٍ محترقةٍ بقيت واقفة. وبسرعةٍ فائقةٍ وضعَ طلقتينِ جديدتين في بندقيتِه. كانت ذراعـه اليُسرى تؤلمُه جداً فما هو مصير عدوه؟ لم يعدْ يسمعُ صوتاً فهل ماتا أمْ أنهما ينتظرانِ اللّحظةَ المُناسبةَ لإطلاقِ النّار عليه؟ شعر بضعفٍ شديدٍ فركّزَ بندقيّته على غصنٍ من الشجرةِ المحترقةِ وأعدّ إصبعهُ لإطلاقِ النّارِ بينما كانت عينُه تمعنُ النّظر الى الجدرانِ وأذنُه تُصغي لأقلّ صوت. بقيَ هكذا دقائقَ بدتْ له سنين.

أخيراً سمعَ صيحةً وراءَه، وتوقّف كلبٌ أمامَه. إنّه بريسكو يُنبئُ بقدومِ سيّده. صاح أورسو: «إليّ يا براندو!» سأله براندولاسيو وهو يعدُو نحوه:

ـ آوه أورس انطون، هل انتَ مجروح؟

ـ نعم في ذراعي.

ـ في الذراع؟ ليس هذا شيئاً يُذكرا! والآخر؟

ـ أعتقدُ أنّني قد أصبتُه.

تبع براندولاسيو كلبَه وذهبَ نحو الحقلِ فنظر الى الجهةِ الأخرى من السّور. وعندئذٍ قال وهو يخلعُ قبعتَه: أحيّيكَ يا سيد اورلاندوسيو ثم التفتَ نحوا أورسو قائلاً: «هذا ما أدعوه

رجلاً دُبِّر امره.» سأل أورسو وهو يتنفس بصعوبة: «هل هو على قيدِ الحياة؟

ـ هذا غير ممكنٍ بالرصاصةِ التي وضعتها في عينه. ما هذا الثّقب!.. عندما سمعتُ اول الأمرِ صوتَ الطلقتيْن، قلتُ لنفسي «لقد قتلوا الملازم!» ثم سمعتُ صوتاً آخر: بوم، بوم. فقلت: ها هي البندقيّةُ الإنكليزيّة تتكلم. إنها بندقيّةٌ جيدة.. لكن ما الذي تُريدهُ ايضاً يا بريسكو؟

قادَه الكلبُ نحو الحقلِ الآخر فقال: ضربةٌ مزدوجةٌ، لا شيءَ غيرَ هذا. سأل أورسو:

ـ ما الأمرُ بحق اللّه؟

ـ أعرفُ شخصاً سيُقدَّمُ له اليوم طبقٌ غريبٌ لِما بعد الأكل. إنه المحامي باريسيني. وهذا لحمُ مذبحةٍ بالقدرِ المطلوب.

ـ ماذا! هل ماتَ فنستنالو ايضاً؟

ـ إنّه جدُّ ميّت. ما هذه الضربةُ يا أورس انطون! لن يحدَث لفتىً طيب مثلي أنْ يطلقَ طلقةً مزدوجةً على الشرطة. لنر ذراعَك. هذا ليس شيئاً يذكر. إشربْ نقطةً من النبيذ... ضربةُ مزدوجة.. الاثنان ماتا!.. آه، ها هي شيلينا.

اشتدّ شحوبُ وجهِ أورسو وقال المطلوب: إذهبي يا شيلي وانظري وراءَ هذا الجدار... أرَأيْتِ؟.. أُنظري الآن وراء ذلك الجدار.. هذا من عملِ السيد. أمّا أنا فلا اصلحُ لشيء.

قالتِ شيلينا:

ــ ستُسر الآنسةُ جداً لكنّها ستحزنُ عندما تعلم أنّكَ مجروح.

ــ هلمّ يا أورس انطون إمتطِ جوادك.

أجاب أورسو بصعوبة:

ــ إلى أين تُريدُني أنْ اذهب يا براندو؟

ــ الى الغابة يا أورس أنطون.

ــ أَلَمْ أعدْ أستطيع أنْ آملَ شيئاً؟

ــ أو كنتَ تأملُ افضلَ من ذلك ببندقيةِ ذاتِ طلقتيْن؟ كيف اصابك؟

ــ لقد كانا البادئين باطلاق النار.

ــ هذا صحيحٌ لقد نسيت: بيف! بيف! بوم! بوم! ضربةٌ مزدوجةٌ بيدٍ واحدة. إذا تفوّق احدٌ عليك فسأشنقُ نفسي.

تعالَ قبلَ أنْ تذهبَ وانظرْ الى عملِكَ الجميل.

لم يشأ أورسو أنْ يرى التعيسيْن اللّذيْن قتلهما، ولم يكن ليفعلَ ذلك لقاءَ ايِّ شيءٍ في هذا العالم. أُعينَ على امتطاءِ جوادِهِ وأسرع بالذّهاب.

* * *

بعدَ رحيلِ أورسو، علمت كولومبا أنّ آل باريسيني يبحثونَ عن أخيها في الريف، فلم تعدْ مُطمئنة. وحواليْ السّاعةِ الحادية عشرةَ سمعتْ وقعَ حوافر جيادٍ في السّاحة، وكانتْ للعقيدِ وابنته. خرجتْ وسألتْهما: «هل رأيتما اخي؟ ايُّ طريقٍ سلكتماُ؟ في ايّةِ ساعةٍ انطلقتماُ؟ أنا لا أستطيعُ أنْ أفهم كيف أنكم لم تلتقوا.

قال العقيد:

ــ ربمّا سَلَكَ أخوكِ الطّريقَ العُليا، أمّا نحنُ فقد جئنا من الطّريق السُّفلى. أنا واثقٌ أنّ ديللاريبيا ربمّا صادفَ طرائد، فلم يستطعْ مقاومةَ لذة الصيد.

ــ هل سمعتماُ طلقاتِ بندقية؟

ــ اجل، اربعُ طلقات؛ اثنتان منها اقوى من الأخريين. لقد قلتُ لابنتي: «هذا دون شك ديللاريبيا يصطاد، فليس هناكَ بندقيةٌ أخرى غيرَ بندقيّتي تستطيعُ إحداثَ مثلِ هذا الصوت.

شَحُبَ وجهُ كولومبا فأدركتِ الآنسة ليديا بسرعةٍ ما يدورُ بفكرها. وبعد صمتٍ طويلٍ قالت كولومبا: «هل سمعتما الطّلقتيْن القويتيْن قبلَ أو بعدَ الأُخريين؟ إن الأمر في غاية الأهمية!»

لكن لا العقيدَ ولا ابنته لم ينتبها الى هذه النقطة.

حوالي السّاعة الواحدة لم يعدْ أيٌّ من الرجال الذين أرسلتهُم كولومبا ورغمَ ذلك فقدِ استعادتْ شجاعتَها وأجبرتْ صديقيْها على الجلوسِ الى المائدةِ فأكلَ العقيدُ جيداً ولم تلمسِ الفتاتان شيئاً.

فجأةً سمعت كولومبا صوتَ جوادٍ فوقفت قائلة: انه أخي هذه المرّة» لكنّها رأتْ شيلينا على جوادِ أورسو فصاحتْ: «لقد مات أخي».

سقطَ القدحُ من يدِ العقيدِ وبدأتِ الآنسةُ نيفيل تبكي.

ركض الجميع الى بابِ المنزلِ وقبلَ ان تتمكن شيلينا من القفز عن الجواد اختطفتْها كولومبا كالريشةِ وضمتها اليها بقوة ففهمت الطّفلةُ المخيفةُ نظرتَها وقالت: «إنه حيٌّ».

تركتْها كولومبا تنزلُ الى الأرضِ وسألتْها عابسةً: «والآخرون؟»

ــ ميّتان.

عندئذٍ احمرّ وجهُ كولومبا وألقت نظرةً سريعةً على دار آل باريسيني ثم قالت باسمة لأصدقائها: «لِنعدْ ونتناول القهوة».

قصّتْ شيلينا ما حدث بالكورسيكية على كولومبا التي قالتهُ بالفرنسية للآنسة نيفيل والعقيد، واستوقفت الطفلةَ خمس أو ستّ مرات كيْ يجعلها تُكرر أنّ براندولاسيو يرى عدم خطورةِ الجرح. أضافتْ شيلينا أنّ اورسو يطلبُ ورقاً كيْ يكتبَ للآنسة نيفيل قبلَ رحيلِها. قالت كولومبا وهي تعانق الآنسة نيفيل: «سوف تبقينَ معي ايتها الصديقةُ العزيزة وستُساعديننا على العنايةِ به... رجلان قويّان! مخيفان! وهو بمفرده، مجروحٌ وبذراعٍ واحدة!... لقد قتل الاثنين! أيّةُ شجاعةٍ تلك ايها العقيد! آهٍ يا آنسة نيفيل، لكَم يسعدُ المرءُ بالعيشِ في بلدٍ كبلدكم!.. تذكر يا سيدي العقيد انّكَ قد سمعتَ الأربعَ طلقاتٍ وأنّك قلتَ لي أنّ أورسو كان ثاني المُطلقين.

كان النّهارُ قد تقدمَ عندما حمُلت للمحامي باريسيني جثتا ولديه، وكل منهما على جوادٍ يقودُه فلاّح. كان بعضُ الأصدقاء يتبعون ومعهم الشرطة التي تصلُ دائماً متأخرة. ثم اتت بعضُ النّسوةِ يبكينَ ويصحنَ، تتوسطهنّ مربيةُ اورلاندوسيو. امّا الأبُ المسكينُ فقد كان منظره مؤلماً وهو

يتنقلُ من جثةٍ لأخرى فيلمس رأسيهما اللذين لطخهما التّرابُ ويقبلُ الشّفاهَ المُزرقّة. كان يفتحُ فمه احياناً ليتكلم، فلا تصدرُ عنه أيّةُ كلمة.

علت صيحاتُ النّساءِ والرجالِ عند مُرورهم امامَ دار اورسو، وتجرأ بعضُ الفلاّحين من اصدقاء ديللاريبيا على اسماع صوتهم، فبدأ الآخرونَ يصيحون: « الثّأر! الثّأر!» قُذفتْ بعضُ الحجارةِ وأُطلقَ عيارانِ ناريّانِ على شبابيكِ القاعةِ التي كانتْ فيها كولومبا مع اصدقائها فتطايرت قطعٌ من الخشبِ حتى الطاولة. أخذتِ الآنسة ليديا تصيح، وتناول العقيد بندقيةً، اما كولومبا فركضت الى الباب قبل أنْ يتمكن احدٌ من ايقافها وفتحتْهُ ثم وقفتْ ممدودةَ الذراعيْن باتجاه اعدائها وصاحت: «أيهّا الرّجالُ الجبناء إنّكم تُطلقونَ النار على النّساءِ والأجانب! هل أنتم كورسيكيون؟ هل أنتم رجال؟ أنتم لا تعرفون سوى القتلِ من الخلف. تقدّموا إنّني بمفردي وأخي بعيد. أُقتلوني واقتلوا أصدقائي فأنتم لا تُجيدونَ غيرَ ذلك. . أنتُم لا تجرؤون لأنكم خائفون وتعلمون اننا سننتقم.إذهبوا وابكو كالنساء فنحنُ لا نطلبُ منكم مزيداً من الدّم.».

كان في كلماتِ كولومبا شيءٌ مخيف، وعندما رآها النّاسُ خافوا وتراجعوا. أعدَّ بعضُ الفلاّحين من اصدقاءِ ديللاريبيا

اسلحتهم، لكنّ الشرطة افادتْ من هذه الحركةِ فتوسطتِ الفئتيْن. اوقفت كولومبا أنصارها قائلة: «دعوا هؤلاء المساكينَ يبكونَ واتركوا هذا العجوز يحملُ ولدَيه. إن هذا الحيوان الهرم لم تَعُدْ له اسنانٌ للعض. تذكر يا جيديس باريسيني المحفظةَ المملوءةَ دماً. لقد كتبَ فيها والدي ما تدينُ به فدفعَ ولداك الثّمن. لم يعدْ أحدُنا مديناً للآخر، ايها العجوز باريسيني.»

ثم أغلقتِ البابَ وقالتْ للعقيد: «أسألُك المعذرة عن مُواطنيّ يا سيدي إذ لم أكنْ أعتقدُ أنّ الكورسيكيّين يمكنُ أنْ يُطلقوا النّار على الأجانب، فأنا منزعجةٌ عن بلدى.»

* * *

عاد المحافظُ الى بياترانيرا مع الشرطةِ وأحضرَ القُضاةَ الذين عليهم إلقاءَ الضّوءِ على تلك القضيّة. ثم ذهبَ لرؤيةِ العقيد نيفيل ولم يخفِ عليه أنّ القضيّةَ تسيرُ لغيرِ صالحِ أورسو. قال: إنتَ تعرفُ أنّه لم يكن هناك أحدٌ كيْ يسردَ علينا ما حدث. فهذان الشابانِ التّعيسانِ كانا كثيري الشّجاعة، لذا يعتقدُ الجميعُ أنّ الهاربين من وجهِ العدالةِ قد ساعدوا أورسو الذي لا يزالُ بقربهم.

قال العقيد: هـذا مستحيلٌ، فالسيد ديللاريبيا رجلٌ مستقيم وأنا مسؤولٌ عنه.

— أعتقدُ ذلك لكنّ القضاةَ كما يبدو لا يفهمونَ الأمرَ هكذا. صحيحٌ انّ هناك طفلةً سمعتْ كما تقولُ اربعَ عياراتٍ نارية كان الأخيرانِ منها أقوى من الآخريْن، وصدرتا عن بندقيةٍ كبندقيةِ السيد ديللاريبيا لكنّ هذه الطّفلة هي بنتُ أخ أحدِ الهاربين من العدالة.

قالت الآنسةُ ليديا:

— لقد كنّا تلكَ اللّحظةِ في الطريقِ وسمعنا نحن أيضاً تلك العيارات.

— حقاً؟ هذا امرٌ هام. وأنتَ ايها العقيد هل سمعت تلكَ الطّلقات؟

بادرتِ الآنسة نيفيل الى الاجابة:

— أجل، إن والدي المعتادَ على الاسلحةِ هو الذي قال: ها هُوَ السيد ديللاريبيا يُطلقُ النّار من بندقيّتي.»

— وهذان العيارانِ النّاريان اللّذان تعرفتِ عليهما كانا الأخيرين؟

— الأَخيرين، أليس كذلك يا والدي؟

لم يكنِ العقيدُ يتذكّر شيئاً لكنّه كان دائماً من رأي ابنتِه.

قال المحافظ: يجبُ أنْ نقولَ ذلك فوراً للقضاةِ ايها العقيد.

ونحن ننتظرُ ايضاً طبيباً يفحصُ الجثثَ ويقولُ لنا إذا كانتِ الجراحُ قد سببّها هذا السّلاح.

— إنّني انا الذي اعطيتُه لأورسو وكان بودّي أنْ أعرفَ أنها في قاعِ البحر... أريدُ أنْ أقول... يا للفتى الشجاع! إنّي جدّ مسرورٍ لأنها كانتْ بين يديْه فلولا بندقيّتي الـ «مانتون» لا أدري كيف كان يستطيعُ الخلاص.

* * *

ذاتَ صباحِ جميل من نيسان كان العقيدُ سيرتوماس نيفيل وابنته التي تزوجت منذ ايام قليلة وأورسو وكولومبا خارجينَ من مدينةِ بيزا في عربة للتنزّه في الريف الايطالي الغنيّ بالنّقوشِ القديمة، توقف أورسو وزوجتُه لرسمِ جسرٍ رومانيّ قديم.

ولما لم يكنِ العقيدُ وكولومبا يهتمان بالرّسم، فلقد تركاهُما لوحدِهما، قال العقيد: لِنذهبْ الى المزرعةِ المُجاورةِ حيث نجدُ بعضَ الحليب والثّمارِ بانتظارهما.

— انتَ على حقٍّ فاعطني ذراعَك.

— إنكِ تُصبحين في غايةِ اللّطف يا كولومبا وستتزوجين قريباً.

— أنا أتزوج! ومن أتزوج ابن اخي، عندما يولدُ لأورسو؟

من سيعلّمه التحدثَ بالكورسيكية؟ أجلْ سيتحدثُ بالكورسيكيّة.

ـ لننتظر أولاً مجيءَ ابنِ الأخِ ثم تُعلّمينه اللّعبَ بالسكينَ اذا أردت.

ـ لقد انتهتِ السكاكينُ فلندخلْ الى هذه المزرعة.

وبينما كان العقيدُ يشربُ قليلاً من النبيذِ البارد، رأتْ كولومبا في طرفِ الحديقةِ عجوزاً جالساً في الشمس، يبدو عليه المرضُ بخديْهِ الغائرين وعَينيْهِ الخامدتين. كان نحيلاً جداً اشبهَ بالميّت منه بالمريض. لاحظتِ المُزارعةُ ذلك فقالت: «هذا العجوز المسكينُ كورسيكيٌّ حلت به المصائبُ في بلده: فلقد مات ولداه بطريقةٍ مُخيفة. يُقالُ يا آنستي إنّ الكورسيكيينّ غيرُ لطيفين مع اعدائِهم. إنّ هذا السيّد المسكين الآن نزيلٌ عند قريبةٍ له هي صاحبةُ هذه المزرعةِ وهو لا ينطقُ بثلاثِ كلماتٍ.لم يعدْ بكاملِ عقلِه ويقولُ الطبيبُ إنّ ذلك سيكونُ من حُسْنِ حظِّه.

ـ يجبُ أنْ تتحدّثي إليه قليلاً يا آنسة.

قالت كولومبا وهي تَبْتسم: «سنرى ذلك.»

إقتربتْ من العجوزِ فحَجَبَ ظلُّها الشّمسَ عنه. عندئذٍ رفع المجنونُ المسكينُ رأسه وأطال النّظر الى كولومبا التي بقيت

تبتسم. مر بيدِه على جبهته وأغمضَ عَينيْه تحت نظر كولومبا ثم فتحهُما وتحركتْ شفتاه. أرادَ أنْ يمدَّ يديْه الى الامامِ لكنه بقيَ مُسمّراً على كرسيِّه دونَ أنْ يتكلمَ أو يتحركَ وشَرَعَ بالبكاء.

قالتِ المُزارعة: «انهّا المرةُ الأُولى التي أراهُ فيها على هذه الحال».

صاح العجوز:

ـ يا إلهي! ألستِ مسرورةً؟ هذه الورقةُ التي احرقْتِها ما الذي فعلتهِ لقراءَتِها؟ لكنْ لماذا كِلا الاثنيْن؟ أورلاندوسيو، لم تستطيعي أنْ تقرئي شيئاً ضدّه.. كان عليكِ أنْ تتركي لي واحداً.. أورلاندوسيو. أنتِ لم تقرئي اسمه.

قالت كولومبا بصوتٍ مُنخفضٍ وبالكورسيكيّة:

ـ كان يلزَمُني كِلا الاثنين. لقد سقطتِ الأغصانُ ولوْ لم تكنِ الشّجرةُ شبه ميّتةٍ لَقطعتُها. لا تشكُ، فليس لديْكَ وقتٌ طويلٌ للانتظار. أمّا أنا فقدِ انتظرتُ سنتين.»

حاول العجوزُ أنْ يصيحَ فسقطَ رأسه على صدره. أدارتْ له كولومبا ظهرها وعادت نحو العقيدِ وهي تردّد بعضَ كلماتِ مرثاة: تلزمُني اليد التي قتلت والعين التي صوبتْ والقلب الذي فكر..»

قال لها العقيدُ: «ما بالُكِ؟ إنّني أجدُ فيكِ الهيئةَ التي كنتِ عليها في بياترانيرا، ذلك اليوم الذي أُطلق فيه علينا الرصاصُ أثناءَ العشاء.

ـ لقد تذكرتُ كورسيكا... لكنّ الأمرَ انتهى...

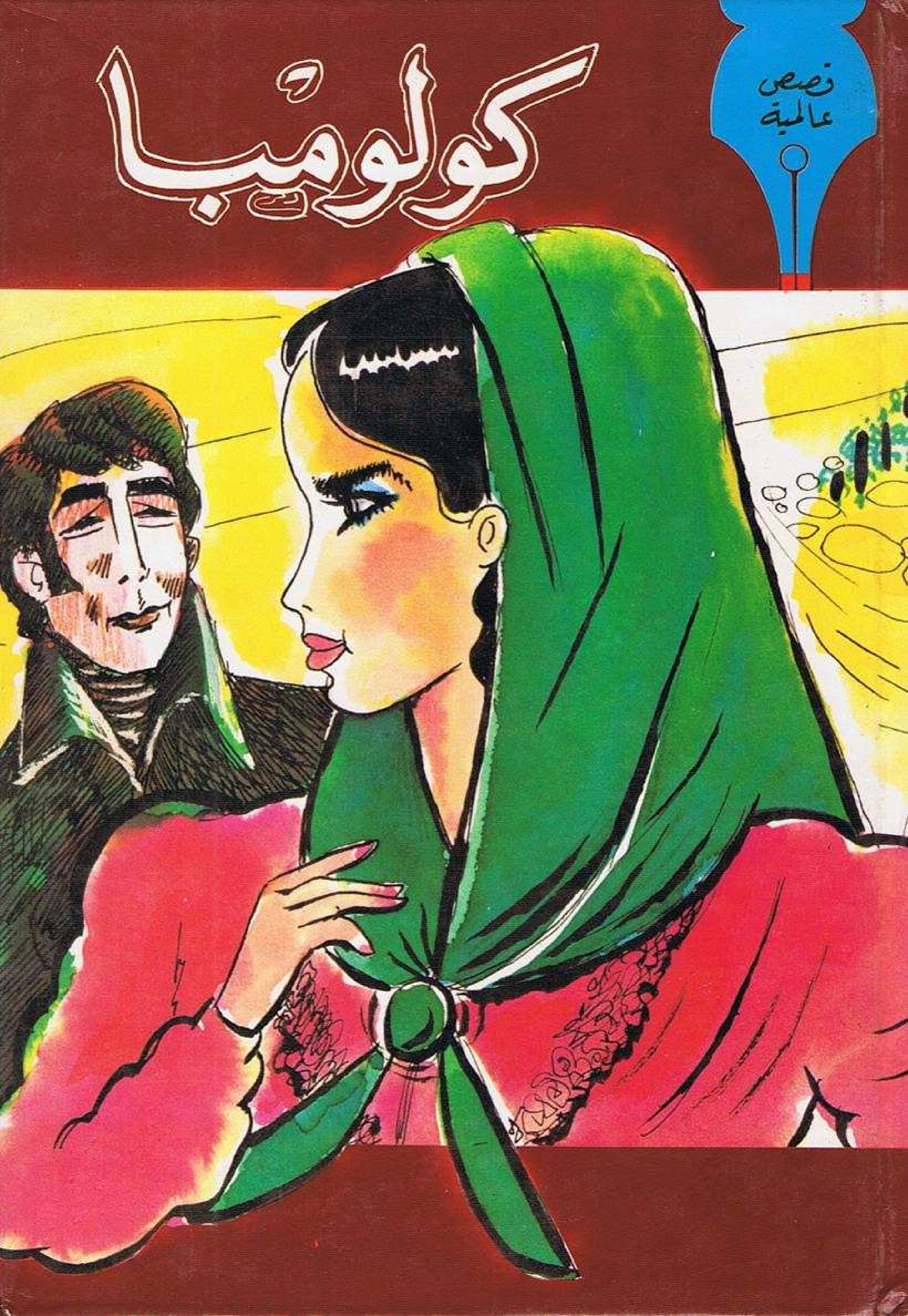
سيكونُ لي ابنُ أخٍ جميل اليسَ كذلك؟... آه يا للأسماءِ الجميلةِ التي سأطلُقها عليه! جيلنوسيو، توماسو، أورسو، ليوني.»

أسئلة

١ ـ مَنْ هم المسافرون الى كورسيكا؟
٢ ـ لم توقّف البحّارُ عن الغناء؟
٣ ـ لِمَ انتشرتْ عادة الثّارِ في كورسيكا؟
٤ ـ ما هي هوايةُ الآنسة نيفيل؟
٥ ـ ما هو رأيُ الآنسةُ نيفيل بالثار؟
٦ ـ ما رأيُك بلقاء كولومبا وأورسو؟
٧ ـ لم أرادتْ كولومبا الحصولَ على إحدى بنادق العقيد؟
٨ ـ ما خلاصةُ المرثاةِ التي غنّتها كولومبا للآنسة نيفيل؟
٩ ـ ما سببُ العداوةِ بين العائلتين؟
١٠ ـ كيف قتل العقيدُ ديللاريبيا؟
١١ ـ ما سرُّ محفظةِ العقيد ديللاريبيا؟
١٢ ـ ما الذي ينمُّ عن عاطفةِ أورسو نحو الآنسة نيفيل؟
١٣ ـ ما الذي اهدتهُ كولومبا للآنسة نيفيل؟
١٤ ـ ما الذي اراد صديقُ العائلةِ أنْ ينصحَ به أورسو؟
١٥ ـ لم استاء أورسو من اللّقاءِ الذي أُعدَّ له؟
١٦ ـ ما هي توقعات جيران العائلتين؟
١٧ ـ كيف قضى أورسو ليلته الأُولى في داره؟
١٨ ـ اين اقتادتْ كولومبا أخاها؟ ولماذا؟
١٩ ـ ما هي نصيحةُ الفارّين من وجهِ العدالة لأورسو؟
٢٠ ـ ما موضوعُ المرثاةِ التي أنشدتها كولومبا في دار بياتري؟
٢١ ـ ما سببُ زيارة المحافظ لدار اورسو؟

٢٢ ــ لِمَ ادّعتْ كولومبا أنّ اخاها لا يستطيعُ الذّهابَ الى المحافظ؟
٢٣ ــ ما رأيك بموقف المحافظ؟
٢٤ ــ لم جرحت كولومبا أذن جوادِ أورسو؟
٢٥ ــ ما رأيك بنهاية القصة؟

صف وتنفيذ: دار قدموس


كولومبا
قصص عالمية